تفسير سورة الفاتحة

حسين صالح العايش البراك

سُورَةُ الفَاتِحَة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ

ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤﴾

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾

ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ

ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ

عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾

مقدمة للدخول في سورة الفاتحة

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾(الإسراء:٩) ، وقال عز من قائل: ﴿ لَوۡ أَنزَلۡنَا هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ عَلَىٰ جَبَلٖ لَّرَأَيۡتَهُۥ خَٰشِعٗا مُّتَصَدِّعٗا مِّنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۚ﴾(الحشر:٢١) صدق الله العلي العظيم.

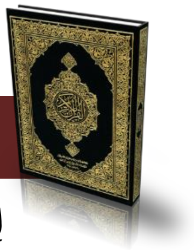

القرآن كتاب هداية

إنّ المهمة الأساسية للقرآن الكريم هي الهداية للتي هي أقوم كما بيّن ذلك، فهو يهدي إلى الصراط المستقيم وهو نور يستضيء به الإنسان في الظلمات المدلهمة، وما أكثر ما تمر على الإنسان ظلمات، لكونه بطبيعته منغمس في الجهل، قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴾(الأحزاب:٧٢) وبجهله يتخلف عن كثيرٍ من الأمور التي توصله إلى الصواب والسداد وترفع من مستواه، ولهذا كان الدور المؤثر والكبير لأنبياء الله ورسله ولأئمة أهل البيت ع هو إيصال الإنسانية جمعاء إلى النور والهداية غير أنّ الأنبياء كل ما لديهم من معارف وعلوم وكذلك ما لدى الأئمة من أهل البيت ع جُمع في القرآن الكريم فقد جمع الله تعالى فيه ما يريده للخلق من هداية.

كيف نستفيد من القرآن

ينبغي أن نلتفت أنه عندما نقول إنّ جميع ما يريد الله تعالى في القرآن ليس ذلك بمعنى أنّه شرعة لكل وارد، ويستطيع كل أحد أن يفهم ما يريده القرآن، فإنّ الأمر ليس كذلك، إذْ كما نعرف أنّ كل مفردة وإنْ كانت بسيطة فإنها تحتاج إلى جهد كبير، والإنسان لولا العلم والمعارف والمهارات التي

يتقنها فلن يستطيع أن يحصل على ما يريده، والأمر كذلك في القرآن الكريم، فهو بحر يحتاج الإنسان فيه إلى سفينة ومجاديف حتى يستطيع أن يشق عبابه، وقد شرح النبي ص والأئمة من أهل البيت ع السبل والطرق التي من خلالها نهتدي بالقرآن، وقد أشار العلماء في تفاسيرهم المتعددة والقيمة التي يحتوي كل تفسير منها على مجموعة من المعارف إلى كيفية الاستفادة من القرآن لكونه كتاب هداية ونور يستضيء به الإنسان في الطرق المظلمة، وأهم الأمور ما ركّز عليه العلماء للاستفادة من القرآن الكريم أمران رئيسيان:

الأول: تزكية النفس

فإنّ من لم يزكِّ نفسه لن يستطيع أن يستفيد من هداية القرآن الكريم، والتزكية صعبة شاقة تحتاج إلى جهد منذ أن يعي الإنسان أهميتها وأنّ النفس تحتاج إلى جهاد حتى يُلحد المرء في قبره وذلك يعني أن يبقى يصارع نفسه ويجاهدها إلى أن يلتقي بالله تعالى، قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ ﴾(الانشقاق).

إذن فإنّ الأمر الأول الذي يحتاجه الإنسان للاستفادة من القرآن الكريم هو تزكية النفس، وشهر الصوم يزكي فيه الإنسان بنحو طبيعي أي أنه لا يحتاج إلى جهد كبير لكون الصوم تزكية للنفس، ومن تأثيراته طهارتها وإيجاد الاستعداد والقابلية لتلقي المعارف الإلهية والاستفادة منها والرقي بها، إذْ به يحصل للصائم عروج روحاني وينفتح قلبه على القرآن الكريم، ويفهم كثيراً من المعاني في شهر رمضان، وكذلك ينفتح قلبه وعقله على الدعاء وعلى ذكر الله تعالى وعمل الخير، فمن صامه وفّق إلى كثير من الخيرات التي لا يوفق إليها في غيره.

الثاني: العلم والمعرفة

يحتاج الإنسان أيضًا إلى العلم، ويحصل له ذلك بالتعلم والسؤال والقراءة والبحث أي بالطرق المتعارفة، فإذا قرأ وسأل أو استمع إلى المعرفة سوف يأخذ شيئاً من العلم، ذلك أنّ العلم لا يتأتى إلاّ بالتعلم، ومن أراد أن يتعلم شيئاً فإما أن يستمع فيعي بالاستماع أو يقرأ فيفهم أو يذهب إلى المدارس والجامعات والحوزات العلمية فيتعلم المعارف والعلوم ويأخذ شيئاً منها.

إذن هناك أمران رئيسان يستطيع بهما الإنسان أن يستفيد من القرآن الكريم: التزكية والعلم والمعرفة.

القراءة التدبرية للقرآن

من وسائل التعلم في عصرنا الاستماع إلى المذياع أو التلفاز، ولله الحمد فإنّ كثيرًا من الإذاعات تعرض برامج القرآن الكريم أما قراءة أو تجويدًا أو تفسيرًا، ومن خلال ذلك يحصل للمشاهد والمستمع معرفة وعلم، إذن بات تحصيل العلم في أيامنا بنحو من السهولة واليسر.

إنّ من أهم الأمور في شهر رمضان قراءة القرآن الكريم قال (ص): (ومن تلا فيه آية فكأنما ختم القرآن في غيره من الشهور)، غير أنه لا يراد بالقراءة القراءة دون تدبر في معاني القرآن، نعم؛ قد يحصل من يقرأ القرآن بالقراءة العادية على الثواب، لكن هناك شيئًا أعظم من الثواب، وهو أن يؤثر القرآن الكريم على باطن الإنسان وداخله، فذلك أعظم من الثواب، لأنّ الثواب قد يزول، فإنّ الحسنة إذا لم تتبع بسيئة تبقى، لكنها إذا أُتبعت بسيئة زال أثرها، والعمل الصالح كذلك إذا اقترن بإعجاب زال تأثيره وأُحبط، ولهذا فإنّ الأهم من الثواب هو ما يحصل

عليه الإنسان من تأثير المعارف على واقعه وروحه أي على الجانب المعنوي من شخصيته، فذلك أهم من الثواب.

يستمع المؤمن في شهر رمضان إلى تلاوة القرآن، وقد يستمع إلى تفسيره أو يقرأ بتدبر فيحصل على حالة معنوية تؤثر في شخصيته فتصقل روحه، وتجعلها متألقة ومتعلقة بالله تعالى.

المعارف العقدية والأخلاقية في القرآن

جميع ما يحتاجه الإنسان من المعارف العقدية والأخلاقية في القرآن الكريم، وقد جمع كل ذلك في فاتحة الكتاب.

إنّها حاوية لمعارف جمة وكثيرة ولها تأثير كبير على شخصية الإنسان ولهذا جُعلت الصلاة بها، جاء في الروايات: (لا صلاة إلاّ بفاتحة الكتاب)(1)، ولها تأثير في جنبتين:

الأولى: الجنبة العقدية، إذْ يتعلم الإنسان من خلالها كثيراً من المسائل العقدية.

الثانية: الجنبة الأخلاقية والروحانية، وهي حقيقة وجود الإنسان ذلك أنّ الإنسان بروحه وبشخصيته المعنوية.

1- عوالي اللئالي لابن أبي جمهور الأحسائي ج1 ص196.

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

البسملة

بدأت الفاتحة بالبسملة، ولها أهمية كبيرة، وقبل أن نوضح معناها نشير أنّ البحث فيها سيقتصر على جانب محدد ومعين لا يشمل الأبحاث اللغوية والنحوية والبلاغية الموجودة في البسملة، ككون الباء هاهنا وردت بهذا المعنى، إذْ أننا لا نبحث لغويًا ولا نحويًا وإنْ كنّا نحتاج إلى ذلك كثيرًا لكون البحث اللغوي يوضح لنا كثيرًا من الحقائق ويسلط لنا الأضواء عليها، غير أنّ ما يهمنا هو النتيجة ولذلك سنهتم بالجنبتين اللتين ذكرناهما آنفاً وهما: الأخلاقية والعقدية، وبقية المعارف قد تأتي تباعًا لهما.

جانب الخلود في البسملة

ذكر العلماء أنّ من طبيعة الإنسان التوق للبقاء والاستمرار وتخليد الأشياء، لأنه طُبع في كنه وجوده حب الاستمرار والبقاء، أي أنّ الله تعالى أودع في وجوده غريزة الخلود، فيتوق بطبيعته إلى أن يخلِّد جميع الأشياء، ولذلك يربط الأشياء بالأمور التي يرى أنّها باقية فيربطها بشيء كبير أو عظيم، لما يرى من تأثير وعظمة له كي تبقى ببقائه.

إذن السبب لربط الأشياء بالأمور الهامة والكبيرة هو تخليد تلكم الأشياء، والبسملة فيها جانب الخلود لكنه خلود معنوي يتعلق بالبقاء الأزلي والسرمدي الذي لا يتناهى وهو الحق تعالى، ولذلك أشارت الروايات إلى هذا المعنى قائلة: إنّ كل عمل لا يرتبط ببسم الله فهو مقطوع أبتر، أما الأعمال التي ترتبط باسمه تعالى فسوف يكون لها الخلود من الناحية المعنوية، وهنا نلتفت إلى جنبة رئيسة وكبيرة وهامة في شخصية الإنسان تتفق مع طبيعته وحقيقة وجوده من

أنه يريد أن يخلّد ما يصدر منه، والرواية تحثه على ذلك وتنصحه أن لا يعمل شيئًا إلاّ بادئًا بالبسملة[٢].

بسم الله الرحمن الرحيم

البسملة آية من آيات الفاتحة لأنّ القرآن صرّح أنّ الفاتحة سبع آيات، والبسملة واحدة منها، وابتدأ بها على نسق ما يبتدأ به في الأعمال الكبيرة والصغيرة، ذلك أنّ صاحب كل عمل يبدأه على ما يعتقد أنه يؤثر فيه، ويربط ذلك العمل بما يوجب له البقاء والديمومة والاستمرار.

باء البسملة

قال العلماء: إنّ للباء هاهنا معانٍ، من جملتها الاستعانة أي يستعين القارئ ببسم الله الرحمن الرحيم، وقيل: إنها ترتبط بنفس المعنى الذي ارتبطت به، ومعنى "بسم الله الرحمن الرحيم" ابتدائي بالبسملة، وقد شرحه السيد الطباطبائي بتتميم الإخلاص في مقام العبودية بالتخاطب مع الله تعالى.

---

٢ في الحديث ((كل أمر ذي بال لم يذكر " بسم الله " فيه فهو أبتر)) تفسير الإمام العسكري (ع) - المنسوب إلى الإمام العسكري (ع) - ص ٢٥ و في التفسير الصافي - الفيض الكاشاني - ج ١ - ص ٨٢ عن الامام الباقر عليه السلام ((سرقوا آية من كتاب الله بسم الله الرحمن الرحيم وينبغي الإتيان بها عند افتتاح كل أمر عظيم أو صغير ليبارك فيه))

معنى الاسم

للاسم معنيان:

الأول: أنه بمعنى السمة وهي العلامة.

والثاني: الرفعة من السمو.

ويمكن أن يراد به أحد المعنيين أو كلٌّ من المعنيين، والمعنى هو إما أن نقرن العمل بالرفعة أو بالعلامة، وتعطي العلامة معنى الارتفاع، ولذلك نرى المولود وقت ولادته يبادر إلى إطلاق الاسم عليه لأنّ وضع سمة وعلامة له يميزه عن غيره، وبتلك العلامة والسمة يرتفع شأنه، إذن الارتفاع والسمو يمكن أن يكون من المعاني الملازمة للسمة، ولما نقول إنّ الاسم بمعنى السمو، سيكون السمو من المعاني الملازمة للسمة أيضًا.

لفظ الجلالة

لفظ الجلالة للباري تعالى، قال العلماء: إنه مأخوذ من أَلَهَ بمعنى عبد أو تحيّر، وعليه فإنّ أَلَه أو الإله سيكون بمعنى المعبود المتحير في إدراكه، قال علماء الكلام: إنّ لفظ الجلالة هو اسم للحق تعالى يستجمع جميع صفات الكمال التي تلازم الذات في تعبير أو أنّ الذات تدلل عليها بتعبير آخر بمعنى أنّ الله تعالى هو اسم للذات المقدسة يدلل عليها وتدل هي عليه.

الله اسم للذات المقدسة

وينقدح هنا سؤال إذْ عندما نقول إنّ الله هو اسم للذات المقدسة، فمن سمّى الله تعالى به؟ أي من أطلق الاسم على تلك الذات؟ وبهذه الحروف ألف ولام ولام وها (الله)، هل هو أطلق لفظ الله على ذاته لكونها مستجمعة لجميع صفات

الكمال ومنزهة عن النقائص ومستحقة للعبادة دون ما سواها من بقية الذوات لأنّ بقية الذوات باطلة، وليس هناك إلاّ ذات واحدة هي للحق المطلق الذي لا بطلان له، ولهذا ورد عن النبي ص عندما سمع كلمة لبيد:

ألا كُلُّ شيءٍ ما خَلا اللّهُ باطِلُ و كلُّ نعيمٍ لا مَحالةَ زائِلُ [3]

قوله (صلى الله عليه وآله وسلم):

إنّ هذه أصدق كلمة قالها الشاعر (ألا كل شيء ما خلا الله باطل) لأنّ كل شيء سيؤول إلى البطلان والزوال وعدم الاستمرار، أما في الشطر الثاني (وكل نعيم لا محالة زائل) فقد قال (صلى الله عليه وآله وسلم): إلاّ نعيم الجنة فهو باقٍ وذلك لأنه يرتبط باسم الحق تعالى.

الاقتران باسم الله

في الأعم الأغلب لا يُعمل عمل دون أن يوضع عليه سمة وعلامة تدلل عليه لأنه دون ذلك سيبقى العمل مبهمًا، والله تعالى يعلم الإنسان هذا النسق الفطري الموجود ويوجهه على أنه يجب أن يكون متجهاً إلى الله تعالى بأن يقترن ببسم الله الرحمن الرحيم.

البسملة قبل زمن نزول القرآن

البسملة قبل أن يُنَزَّل القرآن الكريم كانت موجودة عند بعض الأنبياء، وقد أشار الذكر إلى ذلك قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيۡمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠﴾(النمل:٣٠) إذن وجود بعض آيات القرآن أو بعض الحقائق القرآنية لدى بعض أنبياء الله تعالى أمر ذكره القرآن.

---

٣ بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٢٢ - ص ٢٦٧.

العلاقة بين البسملة والاسم الاعظم

أشارت الروايات إلى أنّ البسملة هي اسم اللّه الأعظم أو أنها أقرب إلى الاسم الأعظم من سواد العين إلى بياضها، ذلك أنّ الاسم الأعظم يُطلق في الروايات ولا يراد به الألفاظ، أي أنّ ألفاظ الإنسان إذا قرأها أو قالها لا يتحقق ما يصبو إليه أو ما يريد أن يصل له، وعليه فإنّ الاسم الأعظم ليس بمعنى الألفاظ المجردة بل أنّ معناه كما قال بعض العلماء:

إنّ معنى البسملة لمن أدركها يوصله إلى ما يبتغيه في عمله وإلى حقيقة الشيء الأعظم الذي أراده اللّه تعالى للعبد في اتصاله به، أي أنّ الاسم الأعظم هو حالة معنوية وهمزة وصل بين العبد ومبدئه، وإذا تحقق الوصل أو الصلة بين العبد وبين اللّه تعالى استطاع العبد أن يحقق مراده ولا يتوقف ذلك على الألفاظ وإنما هو بالمعاني.

وفي الروايات أنّ البسملة تتضمن معاني الاسم الأعظم، وذلك ما نشاهده في لفظ الجلالة الذي هو اسم للذات المقدسة.

وقال بعض العلماء: إنه علم على الذات المقدسة، إلاّ أنّه أشكل بعضهم في إطلاقه على الذات لكونه يقتضي التحديد.

ولسنا بصدد الإشكال على ذلك إذْ أنه حتى لو أطلقنا أنه علم على الذات المقدسة فلا يراد به التحديد بل الإيماءات والإشارة بأنّ اللّه تعالى هو الذي وضع الأسماء للدلالة على ذاته المقدسة التي لا حدود لها لكونها واجبة الوجود، إذن عندما نطلق لفظ الجلالة على الذات لا نريد به المعنى الذي يلزم منه التحديد والتقليل للذات المقدسة لأنّ كل من يؤمن بأنّ الذات المقدسة للحق تعالى لا حد لها ينزهها عن ذلك.

الارتباط بين الاسم والمسمى

وبهذا نصل إلى ما ألمحنا إليه، وهو أنّ حقيقة البسملة فيها شيء من الصلة بين المسمى وهو الله تعالى وبين الاسم، ومن هنا أيضاً ندرك معنى قوله ص (كل أمر ذي بال لم يبدأ فيه باسم الله فهو أبتر)[٤] أي أنّ العمل سينقطع إذا لم يبدأ ببسم الله، لكونه لا بقاء له ولا ثبات، بخلاف ما رُبط بالله تعالى من قول أو عمل سواءً كان العمل مادياً أو معنويًّا، فإنه سيدوم مستمرًا، وقد ذكر أمير المؤمنين ع أنّ ذلك يختصّ بالمؤمن لأنّ غيره إذا لم يبدأ عمله ببسم الله الرحمن الرحيم قد يكون لعمله شيء من التأثير، أما المؤمن فإنه إذا لم يبدأ عمله ببسم الله فقد تترتب عليه آثار وضعية، قال الصادق عليه السلام : (ولربما ترك بعض شيعتنا في افتتاح أمر بسم الله الرحمن الرحيم فيمتحنه الله بمكروه لينبهه على شكر الله تعالى والثناء عليه ، ويمحو فيه عنه وصمة تقصيره ، عند تركه قول بسم الله ، لقد دخل عبد الله بن يحيى على أمير المؤمنين عليه السلام وبين يديه كرسي فأمره بالجلوس عليه فجلس عليه فمال به حتى سقط على رأسه ، فأوضح عن عظم رأسه ، وسال الدم)[٥]، وهذا أحد المعاني لقوله تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ۝٢٠﴾(الإسراء:٢٠)، أي أنّ الله تعالى يعطي المؤمن لكن بالنسق الذي يصب في المجال الإيماني ويعطي غيره بالنسق الذي يصب في المجال غير الإيماني فيتيح الظروف التي يختارها المرء لنفسه، ويتلخص من أطراف الحديث: أنّ البسملة لها أهمية كبيرة في ربط الإنسان الذي آمن بالله تعالى بإيصال أعماله إلى حالة من البقاء والديمومة

٤- شرح أصول الكافي للمازندراني ج١ ص١٨.

٥ بحار الأنوار - العلامة المجلسي - ج ٨٩ - ص ٢٤١.

والاستمرار إذْ لا تزول بل تبقى في عالم الخلود، ولا تنقطع، وهذا له درجات متفاوتة تختلف بقدر ما يخلص فيه الإنسان أي أنه من المعاني التشكيكية، وبقدر إخلاص الإنسان ببسملته لله تعالى واعتقاده بتأثير الله تعالى يكون لعمله الثبات والبقاء والاستمرار.

الرحمانية والرحيمية

وهنا يحسن التنبيه على مسألتي الرحمانية والرحيمية لله تعالى، فهو رحمن ورحيم بعباده، ورحمانيته بمعنى سعة الرحمة لكل شيء، أما رحيميته فهي لطفه الخاص بعباده المؤمنين، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣﴾ (الأحزاب:٤٣)، والرحمانية هي سعة العطاء لكل الموجودات، لأنّ الله تعالى رحيم بعباده سواءً كان العبد كافرًا أو مؤمنًا، فإنّ رحمته تسع جميع عباده، لكنّ رحيميته خاصة بعباده المؤمنين الذين يرتبطون به ويتوقون إلى فضله ويستمطرون عطائه، وقد وردت بعض الآيات التي يظهر منها شمول الرحيمية لغير المؤمنين، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} (البقرة:١٤٣).

الرحمن صفة لله مختصة بالذات

جمعت البسملة ثلاثة أشياء:

١- لفظ الجلالة.

٢- لفظ الرحمن.

٣- لفظ الرحيم.

أما لفظ الجلالة فقد شرحناه، وذكرنا أنّه دال على استجماع الذات لجميع صفات الكمال والجمال، وتنزهها عن جميع ما لا يليق بقدسيتها من النقائص، ونريد أن نعطي هذا المعنى شيئًا من الإيضاح في الأبحاث الآتية.

وأما لفظ الرحمن فهو كلفظ الجلالة أي أنه من الأسماء التي لا تطلق على غير الله تعالى، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾(الإسراء:١١٠)، وقال العلماء: إنّ الرحمن صفة عامة لله تعالى مختصة بالذات المقدسة، ولا تطلق على غيره تعالى.

أما الرحيم فهي صفة عامة، تطلق على الله تعالى وعلى غيره، وكل من عنده شفقة على غيره يوصف بالرحيم، بمعنى أنه يشترك مع الله تعالى في الاتصاف بهذه الصفة وإنْ كان أصلها منه تعالى، إذْ أنّ كل كمال وجودي حقيقته من الله تعالى، ولكن عندما نقول إنّ الرحمن صفة مختصة بالله تعالى لكونها لا تطلق على غيره تعالى، أمّا الرحيم فإنها صفة تطلق عليه وعلى غيره.

أثر صفتي الرحمن والرحيم

إذن الرحمن صفة خاصة لله تعالى، ولا يوصف بها غيره تعالى، فلا يصح إطلاق الرحمن على غير الله تعالى، بخلاف الرحيم فإنها صفة عامة يصح إطلاقها على غير الله تعالى، والأثر للصفتين أنّ الرحمن يشمل جميع وجملة مفردات عالم الوجود، أما الرحيم فإنّ أثره يختص بمن سار على طريق الهدى.

أثر الدعاء بالرحمانية

ذكر الله تعالى الرحمن والرحيم في آيات متعددة، وفيها إشارات وإيماءات لإيصال من أراد أن يستفيد من الاسمين إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ ﴾(الإسراء:١١٠)، وأمره تعالى بالدعاء بالاسمين له ميزة، أما الدعاء بلفظ الجلالة لأنه أعظم الأسماء، وأما الدعاء بالرحمن فإنّ ميزته الخاصة تهمنا في بحثنا الذي نركز فيه على

المسلك الأخلاقي والعقدي، وذلك أنّ من أراد أن يصل إلى الله تعالى فإنّ عليه الدعاء بالاسمين المباركين أولاً باسمه الرحمن، ومن ثم باسمه الرحيم.

س/ قد يتساءل بعض لماذا يكون الدعاء باسم الرحمن يوصل الإنسان إلى الله تعالى؟

والجواب: لعدم اختصاص أثره بالمؤمن، ولا بالمطيع، ولا بمن سار في الصراط المستقيم، لأنّ الرحمانية عامة ومددها شامل لجميع وجملة مفردات الوجود، فإذا حصل تقصير من الإنسان ودعا الله تعالى برحمانيته فقد جعل نفسه إحدى مفردات الوجود التي تشملها الرحمانية، وحينئذ يكون قد حقق التأهل وجعل لنفسه قابلية تلقي الفيض الإلهي، أي أنه عندما دعا بالرحمانية أصبح دعاؤه بالرحيمية مؤثرًا وموجبًا لحصول الفيض الخاص بالمؤمنين، قال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ٤٣﴾(الأحزاب:٤٣)، وهذا مطلب جد هام، يستفيد العلماء منه في أبحاثهم الأخلاقية.

استيلاء الله تعالى على الخلق برحمانيته

أفصح القرآن الكريم عن معنى استيلاء الحق تعالى على الخلق بالرحمة الرحمانية، قال تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ٥﴾(طه:٥)، والاستواء في الآية بمعنى الاستيلاء، وقد جاء ذلك في الروايات، والتعبير جد لطيف يشرح سيطرته تعالى على جميع مخلوقاته برحمانيته لأنّه تعالى هو الذي أمدهم وأعطاهم وليس هناك موجود لا يحتاج إلى مدد وعطاء، وعطائه تعالى برحمته الرحمانية.

الارتباط التكاملي بالعلم

الثاني العلم الذي يوجب تقدم الإنسان وارتباطه بالرحمانية، ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢﴾(الرحمن)، أي خلقه تعالى وعلمه البيان، قال تعالى: ﴿ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾(الرحمن)، وللرحمانية تأثير في الجانب التكاملي لكونها ترتبط بالعلم، ولا يمكن للإنسان أن يرتقي دون علم، ولهذا فإنّ استيلاء الله تعالى على الخلق برحمانيته، وتعليمه لخلقه برفع مستواهم برحمانيته أيضاً، وفي القرآن الكريم إشارات لهذا المطلب، وكذلك في أدعية أهل البيت ع إبانة وإفصاح له خصوصاً ما جاء في دعاء كميل: (اللهم أني أسألك برحمتك التي وسعت كل شيء)، فإنّ الرحمة هنا ليست الرحيمية الخاصة بالعباد المؤمنين السائرين في طريق الهدى وإنما بالرحمانية.

كيف تحقق آثار الرحمانية

ولهذا كثر في تعبيرات الأدعية يا رحمن يا رحيم، وفي بعض الأدعية يكرر ذلك سبع مرات أو عشر مرات ليكون للدعاء أثر استجابة، وذلك أمر طبيعي لأنه بالرحمانية يحصل التأهل فيستجيب الرحيم إذا دعاه العبد سبعًا أو عشرًا قائلاً: "يا رحمن يا رحيم" وكذلك جاء: "يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما" إنّ الله تعالى رحمن بنحو مطلق في الدنيا والآخرة، ورحيم أيضاً، غير أنّ الرحيمية لها شرائط، منها: الاستجابة للطاعة لأنها لا تستحق إلاّ لمن تأهل بخلاف الرحمانية فهي فيض عام يشمل مفردات الوجود، وعليه نتعلم من البسملة مطلباً أخلاقياً سلوكياً وتربوياً في إيصالنا إلى الله تعالى عبر دعائه والتوسل به، وأنه بمجرد أن يضل الإنسان طريق الصواب يتاح له بدعائه بالاسمين أو بالصفتين الرجوع إلى الهدى.

الفرق بين الاسم والصفة

يحسن هنا أن نوضح الفرق بين الاسم والصفة، إذْ يتكرر عندنا الأسماء والصفات، صفات الله تعالى وأسمائه الحسنى، ما هو الفرق بينهما؟ يرجع الفرق إلى اللحاظ، فإذا أطلقنا الاسم فيراد به معنيان:

الأول: التدليل على الذات بلحاظ اتصافها بوصف، أي أنّ الاسم دلّ على ذات متصفة بوصف من الأوصاف، وذلك هو الاسم.

الثاني: لا يلحظ فيها التدليل على الذات بل على الوصف مجردًا.

وعليه فإنّ الفرق بين الأسماء والصفات لحاظي، ولهذا ورد أنّ الله تعالى يُدعى بصفاته وأسمائه أو بأسمائه الحسنى وصفاته العلا.

أمّا الصفة فعندما تطلق فإنّ المراد بها معناها بغض النظر عن أن يكون الوصف دالاًّ على ذات من يقوم به، بل يشير إلى معنى من المعاني كالحرفة بخلاف الاسم فإنه يدلل على معنيين ذات متصفة بوصف.

هل الرحمن والرحيم صفات أم أسماء

في البسملة اسم للذات المقدسة مع وصفين هما الرحمانية والرحيمية غير أنه يصح أن تكون الصفات أسماء والأسماء صفات، لما تقدم أنّ الفرق بين الأسماء والصفات باللحاظ، أي أنّ الفارق لحاظي حيثي، ومع ذلك فإنّ المراد بالرحمانية والرحيمية هنا هو الوصف وليس السمة التي تدلل على السمو والرفعة غير أنّ الوصف أو الصفة لابد أن تكون دالة على شيء بعينه ملحوظ في الدلالة قهراً أي أنه لو حللنا معنى الوصف لوجدنا له لازمًا يقترن به ولا ينفك عنه، وهو الموصوف إذْ لا وصف دون موصوف، ولابد أن يكون الموصوف قبل الصفة

لتكون دالة عليه، وقد أفاد علماء العربية أنّ الوصف إخبار في المعنى فهو إخبار عن الذات باتصافها بصفة ما، وفي مقامنا فإنّ الرحمانية والرحيمية بمثابة الخبرين عن اللّه تعالى، والمعنى أنّه تعالى رحمن رحيم، ولهذا كان للبسملة تأثير عظيم لا حدود له.

من أسرار الابتداء بالبسملة

يُبدأ بالبسملة في الدعاء لتؤثر في الاستجابة، ويبدأ بها في كل عمل ليرتبط بالحق تعالى، وليكون له درجة من الثبات والبقاء خصوصًا في الأمور المعنوية أي إذا أراد أحد أمرًا معنويًا فإنه يحتاج إلى البسملة ليكون ذلك الأمر المعنوي مرتبطًا باللّه تعالى.

الآثار الوضعية للبسملة

للبسملة فوائد جمة ومتعددة، ولها آثار وضعية، ولهذا عبّر عنها بأنّها أقرب إلى الاسم الأعظم من سواد العين إلى بياضها، فإذا بسمل المرء فقد ارتبط وربط عمله باللّه تعالى، ولهذا يحصل لمن بسملَ حالة معنوية مؤثرة، خصوصًا لمن يفقه معناها، إنّ فيها شفاء الأمراض والعلل والتوفيق لإكمال العمل والبركة في إنمائه إلى غير ذلك من الآثار، حتى أنّ العلم أثبت بعضًا من آثارها، وقد أوجب الشارع المقدس ذكر اسم الحق لتذكية اللحم، وأشارت الأبحاث العلمية إلى أنّ ذكر اسم اللّه على اللّحم طهارة معنوية للّحم، إذْ تقل نسبة البكتيريا الضارة ويصبح اللحم مفيدًا وغير ضار بتناوله، بخلاف اللّحم الذي لم يذكر اسم اللّه عليه، وقد أجرى بعض العلماء تجربة على الماء أثبت فيها أنّ الماء الذي يذكر

اسم الله عليه يختلف عن غيره فيصبح مفيداً للإنسان لوجود طاقة كبيرة مفيدة للإنسان فيه، وقد أفاد العالم الياباني "ماساروا إموتو" في كتابه رسالة من الماء "The Message from Water" أنّ أفضل بلورات الماء ما ذكر عليه البسملة.

إطلاق الرحيم على غير الله

بقي شيئ هو أنّ الرحيم إذا أطلق على غير الله تعالى وقيل فلان رحيم، وكذلك الرحمن أيضًا فإنّ المعنى لهما هو الانفعال إذْ هما من الشفقة والتأثر بحال المرحوم الذي يستدعي العطف وإسباغ الرحمة، لكن الأسماء والصفات إذا أطلقت على الحق تعالى فهي ليست بهذا المعنى لأنّ الله تعالى لا يتأثر بأحد ولا يؤثر فيه أحد، وينبغي أن يُعلم أنّ الرحيم إذا أطلق على غير الله تعالى فإنّ فيه شيئًا من التأثر، أما الحق تعالى فلا يتأثر بشيء، بل هو المؤثر الحقيقي في الأشياء، وعندما يصف نفسه بالرحمن الرحيم، فإنّ الوصف الذي يطلقه الحق على نفسه له معنى دقيق يتضح من خلال فهم أنّ الأسماء والصفات لله تعالى لا تطلق عليه إلاّ إذا أتت منه أو ممن ارتضاه كأنبيائه ورسله وأوليائه فهم الذين يصفونه كما ينبغي، أما غيرهم فإذا أطلق اسمًا أو صفة على الحق تعالى فلا يعبر عن الحقيقة بتعبير حق، لأنه لم يصل إلى تلك المرتبة من الإحاطة الوجودية التي تقتضي أن يكون إطلاقه صحيحاً، قال تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ١٥٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ١٦٠﴾(الصافات)، أي أنّ الأوصاف التي يطلقها غيره تعالى على ذاته فيها شيء من المحدودية، بخلاف الأوصاف التي يطلقها الحق على نفسه أو يطلقها المخلَص أي المجتبى المستخلَص، فإنّ إطلاق هؤلاء الأوصافَ على الله تعالى تتناسب مع ما يريده الحق تعالى، وقد وردت إشارات في القرآن الكريم ترفع المحدودية عن الصفات والأسماء التي تطلق على ذاته تعالى من خلال قرن

الأوصاف والأسماء بالتسبيح لله تعالى كي لا تشاب بشيء من المحدودية نتيجة محدودية الْمُطلِق، ومحدودية اتصاله بعالم الإمكان، وذلك أنّ حقيقة الذات المقدّسة لا حدّ لها بل أنّ حمده تعالى يقرن بتسبيحه ليدلل على تنزهه عمّا لا يمكن أن يتصف به لأنّ الحمد وصف للمحمود يشاب بشيء من محدودية الواصف للحامد، وكي يتخلص الحامد من المحدودية يقرن حمده بتنزيه الله تعالى عمّا لا يليق به من محدودية، وينبغي هنا الالتفات إلى أنّ الحمد لله تعالى في البسملة "الرحمن الرحيم" لم يقرن بالتسبيح، لأنّ الإطلاق جاء من قبل الله تعالى، وإذا وصف الله تعالى نفسه فإنّ أوصافه دالة على عدم محدودية ذاته.

﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

معنى الحمد

الحمد هو الثناء لله تعالى على الجميل الاختياري، عندما نحمد شيئًا فإننا نسبغ ثناءً على ذلك المحمود، والحمد ثناء باللفظ على جميل اختياري، والمراد من الاختياري أنّ تلك الصفة التي يتصف بها فيها جمال وكمال، والتي يُحمد عليها ليست آتية من غيره بل هي أمر طبيعي له، إذن الحمد ثناء لفظي على جميل بالاختيار، أي ليس بالقسر والإكراه.

الفرق بين الحمد والمدح

هناك ثلاثة ألفاظ ينبغي أن نفرق بينها هي الحمد والشكر والمدح، المدح أعم من الحمد، إذْ نمدح شيئًا سواءً كان كماله بالاختيار أو بغير اختيار، فعندما نمدح عالمًا نثني على علمه، رغم أنّ العلم جاء بالجهد وبنحو من الاختيار، وهو التعلم، فمدحناه وأثنينا عليه لعلمه، فصحّ أن يقال حمدناه أي أثنينا عليه بجميل اتصف به وهو العلم، وقد أتت الصفة بطريق اختياري، وأما إذا اتصف شيء بوصف قهري كاتصاف اللؤلؤ بالصفاء، فلا يصح أن يحمد اللؤلؤ لصفائه، لأنّ صفاء اللؤلؤ ليس اختياريًّا بل هو صفة تلازمه على نحو القسر، نعم؛ يصح أن نقول مدحت اللؤلؤ، وبهذا اتضح الفرق بين الحمد والمدح، وأنّ المدح أعم لأنّه يشمل الأمر الاختياري وغيره.

الفرق بين الحمد والشكر

أما الحمد والشكر، فإنّ الشكر يختلف عن الحمد إذْ أنه يأتي باللفظ والعمل، أمّا أنّ الحمد فإنه لا يأتي إلاّ عن طريق الألفاظ، بخلاف الشكر فهو ثناء يأتي عن طريق اللفظ والعمل، فيكون أعم من الحمد، ولهذا نطلقه على الإنسان

إذا قام بالفرائض وأدّى الواجبات وترك المحرمات، نصفه بالعبد الشاكر لكونه يثني على الله تعالى بالفعل، وقد جاء ذلك في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾(سبأ:١٣)، أي أنّ الله تعالى مدح بعض عباده لكونه يثني عليه بالفعل والقول، وكي يتضح ذلك، فإنّه عندما ننظر إلى أكثر الناس نراهم يحمدون الله تعالى، ولكنهم لا يشكرونه أي لا يسيرون في صراطه المستقيم بيد أنهم يقولون: "الحمد لله رب العالمين".

وهناك معنىً آخر للشكر هو التناسق بين فعل الشاكر ومدحه اللفظي أي أنّ عمله يتناسب مع المشكور، أما الحمد فهو ثناء باللفظ فقط، وإنِ اتصف بمعنى دقيق، وهو أنّ الحمد هو الهداية، أي أنه الطريق للعلم بالمدح والشكر، ذلك أنّ الإنسان يتعلم أولاً الحمد، ويسبغه على غيره لكونه غير قادر أن يؤدي بالفعل لكنه عندما يترسخ الحمد في عمق وجدانه ينمو معرفيًا ويستطيع حينئذ أن يكون شاكرًا، ولعله لهذا ورد في السورة بعد الوصفين ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أي الثناء المطلق، والألف واللام هنا إما للجنس أو للاستغراق، وإنْ كان المعنى واحد، أي أنّ الجنس يفيد الاستغراق، والحمد بجميع أنماطه وأشكاله يرجع إلى الحق تعالى، فهو الذي منح النعم لجميع عوالم الوجود، وإذا أدركنا المعنى الدقيق للحمد وهو أنّه بداية تعلم الإنسان وفقهه ليثني على الجمال، ويسبغ عليه ثناءً ومدحًا، لأنّ من لا يدرك الجمال لن يستطيع أن يثني عليه، فلا يمدح عالمًا إلاّ إذا عرف بالعلم، ولا كريمًا إلاّ إذا عرف بالكرم، وهكذا الحال في بقية صفات الكمال والجمال.

اللام الجنسية واللام الاستغراقية

قلنا إنّ الألف واللام هنا إما للجنس أو للاستغراق والمآل واحد، إذِ الجنس بمعنى أن تكون حقيقة الحمد والثناء من الله تعالى وترجع إليه، والاستغراق

يراد به أنّ جميع مفردات الحمد منه تعالى لكن الاستغراق يشار به إلى الأفراد، وأنّ كل مفردة من الثناء على حدة فهي له، أما الجنس فيراد به الحقيقة.

فيض الله تعالى وعطاياه اختيارية

إنّ العطايا والمنن التي أفاضها الله تعالى على عالم الوجود صادرة منه بالاختيار، إذْ لا تستطيع قدرة في الوجود أن تقسره تعالى على العطاء، فهو القاهر لعباده، وعباده مقهورون لقدرته، وكل عطاء ومنحة من الله تعالى.

نعم؛ بعض المنح والعطايا لا ندرك الجانب الجمالي أو الكمالي فيها لكنها في حقيقتها جميلة، قال العلماء:

إنّ الجانب الإجمالي في الأشياء وفي بعض مفردات الوجود يعود إلى جهة نقص فيها لمحدوديتها ولهذا إذا أدركنا شيئًا نجد أنّ الكمال يشير إلى جماله، وقد مثلنا بعلم العالم وبحلم الحليم أو رحمة الرحيم، وكل صفة من الصفات السابقة دالة على كمال، وإذا رأينا شخصًا تجرد عن هذه الأوصاف ولم يتصف بالحلم ولا الرحمة ولا العلم فذلك لجهة نقص لا كمال، واللا كمال بوجه يشير إلى جهة كمال وجمال موجودة في غيره، وإذا قيل: "الحمد لله رب العالمين" فهو بمعنى أنّ كل صفة من صفات جماله وكماله تتصف بها الذات إذْ لو لم تكن الصفات الجمالية والكمالية لدى الذات لاستحال أن تكون عند غيره، لكنها موجودة في ذاته المقدسة على نحو مطلق لا حد له، أما في غيره من الموجودات فتحيطها المحدودية والنقص، وعندما نمدح شخصًا أو نحمد شيئًا نحمده لوجود تلك السمة والصفة الكمالية فيه، فنسبغ الحمد على الحليم لحلمه والعليم لعلمه والشاعر لشاعريته والرسام لفنه وهلم جرا، لكن نهاية المطاف ترجع إلى الله تعالى لأنه هو من أسبغ عليها الكمال وأفاض عليها الجمال ولو لم

يكن الحق تعالى أعطاها لما صح لنا وصفها بالحمد، إذن لقولنا: "الحمد لله رب العالمين" لحاظان:

الأول: أنه مصدر جاء من معطٍ هو الله تعالى الذي أسبغ نعمه الظاهرة والباطنة وأفاضها على الشيء المحمود.

الثاني: هو أنّ حمد المحمود لأجل تلك السمة والصفة الكمالية التي اتصف بها، وهي جميل اختياري.

حيثيات الحمد

أكّد أئمة أهل البيت (ع) على بعض الحيثيات:

الأولى مرجع الحمد لله تعالى

قولنا: "الحمد لله رب العالمين" أو "الحمد لله" فقط، نجمع فيه جميع المحامد ونجعلها لله تعالى، لأنّ (ال) إما للاستغراق أو للجنس، ولم يبق شيء من الحمد إلاّ وهو راجع إليه تعالى، وقد أراد الأئمة ع أن يرسخوا هذا المعنى بنحو عملي ليكون نبراساً لغيرهم، ففد ضاعت دابة للإمام الصادق (ع)، فقال لأصحابه: لئن رجعت إليّ هذه الدابة لأحمدن الله بجميع محامده، فما لبث هنيئة إلاّ وجيء بها، فقال ع: الحمد لله، ولم يزد على ذلك شيئًا، فتعجب بعض أصحابه وقال ألم تقل إنّك ستحمد الله تعالى بجميع محامده، فقال الإمام ع مجيباً: (لم أبق شيئاً من الحمد وإلاّ رجع إلى الله) لما تقدم أنّ الألف واللام إمّا للاستغراق فتشير إلى جميع مفردات الحمد أو للجنس فتستوعب الحقيقة.

الثاني المستحق لحقيقة الحمد

وإذا كانت (أل) للجنس تكون أبلغ لأنّ (ال) الجنسية تشير إلى أنّ حقيقة الحمد صادرة من لدن الذات، أما إذا جعلناها للاستغراق فمعناها أنّ كل حمد يرجع إلى الله تعالى في المآل، وذلك يحتاج إلى تأويل، بخلاف الرجوع إلى الله

تعالى لكونه منه، فإنّ دلالة (ال) على أنّ جنس الحمد من عند الله تعالى فيه نحو من الإفصاح والبيان.

نقطة الافتراق والاتحاد بين الحمد والشكر

في بعض الأحايين قد نطلق الحمد ونريد به الشكر، كقولنا: " لأحمدنك شاكراً لأنعمك" فإنّ الحمد هنا يراد به الثناء على الله تعالى والشكر له بإزاء نعمة من النعم، فيثنى عليه لأداء شكر تلك النعمة، غير أنّ الأصل في الحمد أنه ثناء لا يراد به الشكر، ولهذا عندما نقول: "الحمد لله رب العالمين" أي أنت المحمود على كل حال، إنْ أعطيتني حمدتك وإنْ منعتني فأنت المحمود، وذلك هو الثناء على الكامل لأنّ الله تعالى مصدر الكمال، والحامد لا يلحظ وجود نعمة ثم يحمد الله تعالى، بخلاف الشاكر فإنه يلحظ وجود نعمة ثم يثني عليه تعالى، إذن هناك فارق بين الحمد والشكر، وعبّر تعالى بـ"الحمد لله رب العالمين" كي يتاح لمن يريد أن يسير في طريق الله تعالى أن يكون مساره على جادة الصواب لأنه أدرك معنىً دقيقاً هو أنّ الله تعالى سواءً أعطاه أو لم يعطه، يستحق الثناء لأنه كامل بل هو مصدر الكمال، أنعم على الحامد أو لم ينعم، ولما يُثْنى على الله تعالى لكونه تعالى كاملاً سيتحقق حينئذ الدرجة الأولى التي تجعله شاكرًا لأنعم الله تعالى فيدرك عملاً أنّ قوله: "الحمد لله رب العالمين" أنّ كل كمال تتصف به الذات وهو راجع إليها، ومن ذلك يصبح لديه سمة الشكر وصفته، أي أنّ الحمد يجعل الإنسان شاكرًا لله تعالى في النهاية.

سر التعبير بالحمد

ولعل هذا يوضح ما ورد في الروايات القائلة إنّ أول ما يدخل الجنة الحامدون، لأنّ الحامد عرف أنّ الذات المقدسة هي مصدر لكل كمال، فأصبح

شاكرًا، وهذا معنى دقيق لمن أراد أن يسير في المسار التربوي حتى يصبح كاملاً في نفسه، وأنّ الكمالات سواءً كانت لديه أو عند غيره ترجع إلى الذات بنحو طبيعي، نعم؛ من يعمل بها في الطريق الذي يحبه الله تعالى يكون شاكرًا لله تعالى، إذن الرقي المعنوي لا يتأتى إلاّ بالحمد، والتكامل في المجال الأخلاقي والنفسي والمعرفي لا يكون إلاّ به.

العلاقة بين الحمد والكمال التربوي

الله تعالى هو مصدر الكمال لأنه أوجد الإنسان وأفاض عليه النعم، واللسان الذي نثني به عليه هو الذي أنطقه، إذْ هو مجرد عصب أو لحم كسائر اللحم لكنه ينطق بالثناء على الله تعالى، وهو نعمة من نعمه تعالى، يستحق عليها الحق الثناء والشكر، ولهذا جاء في دعاء الإمام السجاد ع: (إلهي كلما قلت لك الحمد وجب علي لذلك أن أقول لك الحمد) أي كلما أثنيت عليك استحققت مزيدًا من الثناء لأنّه أدرك كمالاً، وتوفق لنعمة إذْ أنه ذكر الله تعالى وأثنى عليه، فوجب عليه بذلك حمدًا آخر وهو معنى كلما قلت لك الحمد وجب علي بذلك أن أقول لك الحمد.

منتهى الكمال الإنساني إدراك الحمد لله رب العالمين

في "الحمد لله رب العالمين" معنى رائع وجميل هو أنّ الإنسان كلما وصل إلى كمال، فإنّ نهايته ثناء ومدح، ولهذا فإنّ أهل الجنة في نهاية المطاف يحمدون الله تعالى: ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٠ ﴾(يونس)، أي حتى من وصل إلى قمة الرتب فإنّ النهاية هي "الحمد لله رب العالمين".

النظرة الإيجابية للإنسان تؤدي للتكامل المستمر

وإذا أدرك الإنســـان حقيقة الحمد فإنه يتكامل بنحو طبيعي، لأنه يدرك الجانب الإيجابي للإنسان، إذْ أنه يعيش بين جنبتين:

الأولى: النظر إلى الأشياء بنحو سلبي.

الثانية: النظر إليها بنحو إيجابي.

والنظرة الإيجابية تؤدي إلى التكامل باستمرار، أما النظرة السلبية فتؤدي إلى الهبوط والتســافل، إذن الحمد يعلم الإنســـان النظرة الإيجابية، ذلك أنّ الإنســـان عندما يقول: "الحمد لله رب العالمين" ينظر إلى كمال الله تعالى وإلى الكمالات في عالم الإمكان ثم يثني على الله تعالى الذي أفاض النعم وأغدق العطايا، وهذا إدراك للجانب الإيجابي فيدعو فيســـتفيد من ذلك، لأنه نظر أنّ النعمة من عند الله تعالى فينفق المال في ســـــبيله تعالى، ويفيض علمه على الآخَرين مما يؤدي به إلى التكامل باســـتمرار، فلا يقف عند حد، (اللايقفي في عالم الإمكان).

كيف تخلق النظر الإيجابية في حياتك

إنّ الإنســـان وإنْ فقد كل شـــيء إلاّ أنه يبقى لديه الفكر، فإذا فقد فكره انتهى، أما ما دام مفكرًا فإنه ســيثني على الله تعالى، فيتكامل بذلك، وقد أشـار بعض الأدباء إلى هذا المعنى فقال:

كن جميلا ترى الوجود جميلا

أي أنك ما دمت تنظر إلى عطايا الله تعالى ومنحه، ســـوف تتحول النقم إلى نعم، وكل مصـــــيبة يثنى على الله تعالى فيها ويدرك أنّ الله تعالى ابتلاه

لمصلحة تعود إلى كماله، وسيؤدي به ذلك إلى نوع من الكمال وقد يكون ذلك لا يخص المؤمن بل يشمل غيره إلاّ أنّ هذه نظرة عرفانية لسنا بصدد شرحها، وما يهمنا هو النظرة الأخلاقية للمؤمن ليرتقي في معرفته لله تعالى، ويطور من خدمته له تعالى من خلال الحمد والشكر، ورد في الدعاء: (الحمد لله على السراء والضراء) والحمد على الضراء لكونها تؤدي إلى الكمال كابتلاء إبراهيم عليه السلام بكلمات، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾(البقرة:١٢٤)، وابتلاء النبي (ص) (ما أوذي نبي بمثل ما أوذيت).

إذن كل كمال سواءً كان بالابتلاء أو بإفاضة النعمة، وسواءً كانت النعمة بنحو مباشر أو بنحو غير مباشر، فإنّ المآل هو الحمد والثناء على الله تعالى لأنه وفّق الإنسان ليتكامل ساميًا.

كيف يكون الله مربيا لجميع العوالم

اتضح أنّ جميع المحامد ترجع إلى الله تعالى، وهو تعالى ذكر سببًا لرجوع المحامد إليه، هو أنه رب لجميع عوالم الوجود، والرب في اللغة هو المربي ويتضمن معنى هو أن يكون مالكًا، ومالك الشيء هو من يعتني به بتربيته، إذن العلة التي من أجلها أنّ له الحمد هي كونه رب للعالمين.

الاحتمالات في معنى العالمين

العالمين جمع عالم، ويطلق على كل نوع من عوالم الوجود كعالم النبات والجماد وعالم الإنسان وهلم جرا، والله تعالى هو المربي لجميع عوالم الوجود أي لا يختص بكونه ربًا لعالم الإنسان أو الحيوان بل هو مربي لجميع العوالم، نعم؛ قد يطلق العالمين على الموجودات العاقلة كعالمي الإنس والجن، وعالم الملائكة، ولهذا اصطفى الله تعالى مريم على نساء عالمها، وسيدة النساء الزهراء عليها

السلام على نساء العالمين، والمعنى أنّ كل زمان وفي كل عالم، هناك عوالم بعدد الأزمنة فتكون سيدة لنساء العالمين أي لجميع العوالم، وقد أثنى سليمان عليه السلام على الله تعالى وحمده بأن اختصه بالفضل دون بقية العالمين، ولعل المراد به ما يعم عالمي الإنس والجن.

إذن "الحمد لله رب العالمين" يقصد به أحد معنيين:

الأول: ما يشمل جميع عوالم الوجود وهو الأظهر في الآية.

الثاني: ما يختص بالعوالم العاقلة الثلاثة (الملائكة والجن والإنس) غير أنّ الأصح والأظهر هو أنّ قوله تعالى: "الحمد لله رب العالمين" يشمل جميع وجملة عوالم الوجود ولا يختص بالعوالم العاقلة.

اللطف الإلهي سبب ارتقاء وكمال الإنسان

تبين فيما تقدم أنّ لفظة رب تتضمن المالك المربي، والله تعالى له ذلك لكونه مالك يوم الدين، وله كل شيء، قال تعالى: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾(البقرة:٢٨٤)، وقد جيء هاهنا بلفظة الرب إبانة للإنسان، وتبيان له أن يحمده تعالى لأنه يستحق الحمد لتوليه شؤون العبد وتربيته بإيصاله إلى الكمال، ولله تعالى لطف خاص بالإنسان، وهذا اللطف الإلهي هو الذي يصل به الإنسان، ولولاه لما استطاع أن يصل إلى كمالٍ، وكلما ازداد الإنسان تأملاً أدرك اللطف الإلهي الذي أوصله إلى كماله، ونعلم يقينًا أنّ الأشياء جائية من عند الله تعالى كالأكسجين الذي نتنفس به، ولولاه لما استطعنا أن نعيش، لكون الإنسان بحاجة إليه، وكذلك الصحة التي يتمتع بها كثير من الناس ولا يُشعَر بالنعمة أو يدركها إلاّ إذا أصيب بمصيبة فيجزع ويفزع لكونه يلتفت إلى جانب النقمة الخاصة.

فلسفة حمد الله تعالى

عندما يعلم الله تعالى العبد أن يثني عليه" الحمد لله رب العالمين" فهو تعالى يبين له أمرًا غاية في الأهمية، وهو أنك تحمد من يتولى تربيتك، ولا يتولى تربيتك بمفردك أو بعالمك وحده الذي تنتمي إليه، وتنسب له، بل يتولى جميع وجملة عوالم الوجود، ويربي العالمين جميعًا، وهناك ارتباط دقيق بين عوالم الوجود، فكل عالم منه يرتبط ببقية العوالم، غاية الأمر قد لا ندرك نحن مدى الارتباط بين العوالم، وقد لا ندرك التأثير فيما بينها، نعم؛ قد ندرك شيئًا بسيطًا وقليلاً كتأثير النبات لكونه يمتص ثاني أكسيد الكربون ويحسن الطقس والطبيعة، غير أنّ ما لا ندركه من الأشياء الأخرى لا يعني أنّه ليس لها تأثير في عالم الوجود.

إنّ علماء الحيوان والنبات يدركون وجود توازن بيئي بين الطبيعة، وأنه يختل باختلال بعض عوالمها، ومن خلال ذلك نعلم أنّ جميع وجملة عوالم الوجود يرتبط بعضها ببعضها الآخر وأنّ استقامتها بارتباطها الوثيق فيما بينها، وقد أفاد الفلاسفة أمرًا دقيقًا خلاصته:

أنّ كل مفردة من مفردات عالم الوجود لها ارتباط بالمفردات الأخرى وأنّ تأثر أو كمال تلك المفردة يوجب التأثر والكمال لبقية المفردات الأخرى، قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾(الإسراء:٤٤)، أي أنّ جميع الأشياء في حقيقة وجودها ترتبط بالله تعالى فهو المربي والمالك لها، والقائل: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ يثني على الله تعالى ويعترف بعبوديته تعالى، ويفقه أنّه تعالى مالك له، وهو المربي المستحق للحمد.

العلاقة بين الحمد والعبودية

والنتيجة أحمد من رباني لأنّ جميع العالمين مربوبون له تعالى، وهو المستحق للحمد، وذلك اعتراف بعبوديته تعالى واعتراف بأنه المستحق للحمد دون ما سواه، لأنّ ما سواه ليس كمثله، وهذه دقائق من المعاني تهدي الإنسان الحامد إلى صراط العبودية، ولعله لذلك كان أول من يدخل الجنة الحامدين لسيرهم في مسار عبودية الله تعالى.

الحمد في الروايات الشريفة

أكدت الروايات على أهمية الحمد في الصباح والمساء، وفي كل آناء الليل والنهار وعند تجدد كل نعمة، ودفع كل نقمة، بل وفي الضراء وليس في السراء فحسب، يستحب للإنسان أن يحمد الله تعالى، وقد ورد الحمد بأنماط مختلفة ومتعددة، كقولنا: "الحمد لله رب العالمين" و"الحمد لله حمداً طيباً مباركاً" و"الحمد لله على كل نعمة كانت أو هي كائنة" وأنحاء أُخر من الحمد، ويعود السبب في ذلك أنّ الإنسان حين يصبح فقد اجتاز وقتًا، وهذه نعمة هي نعمة البقاء التي يستطيع بها الإنسان أن يستثمر وجوده ليزداد قربًا من الله تعالى فيحمده بأشكال مختلفة من الحمد.

تجديد واستمرارية الحمد

وأكدت الروايات أيضًا على أهمية تكرار بعض آي القرآن المشتملة على الحمد، كقوله تعالى: ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾(الروم) لتشير

إلى تجدد واســـــتمرار النعم من عند الله تعالى وبالتالي ضـــــرورة إدمان الحمد والثناء عليه تعالى.

ارتباط الحمد باستجابة الدعاء

وكشـــفت الروايات عن أهمية الحمد في اســـتجابة الدعاء، وأنّ الدعاء لا يســــتجاب إلاّ إذا أثنى الداعي على الله تعالى، ومن أبلغ أنماط الثناء الحمد لله تعالى، لأنه تمجيد لله تعالى، ولهذا جاء في الأدعية الواردة الحمد لله قبل الدعاء والمسألة، ونحن ندرك بطبيعتنا، ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾(النحل:٦٠)، أنّ من جاء يطلب شيئًا لا يتفاعل وإياه بنحو طبيعي إلاّ بالتواصل معه، ولا يحصل ذلك إلاّ بالمدح كقوله: "أنك من الكرام، تقري الضـــيف وتفك الأســـير، وتعطي الخير" والله تعالى لكونه المنعم المطلق وجميع وجملة ما في الوجود من نعمه تعالى، فمن أراد أن يحصل على عطية وأراد لدعائه أن يستجاب، فإنّ عليه أن يثني على الله تعالى، وأن يصلي على محمد وآل محمد، ثم يبدأ الدعاء، وحينئذ فإنّ الله تعالى يغدق عليه النعم ويستجيب له الدعاء.

التكامل المنسجم مع مراتب عالم الوجود

يريد الله تعالى أن يعلم الإنسان كيفية التكامل المطرد والمنسجم مع عالم الوجود بمراتبه المختلفة وأنحائه المتعددة، ولهذا أمره بعبادته وشكره وذكره وأمره بشكر الوالدين لأنّ لهما مرتبة كبيرة في وجوده، قال تعالى: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾(لقمان:١٤)، فرتب شكرهما على شكره مباشرة، ويتبين من هذا أنّ أعظم الشكر للآباء الروحيين كالأنبياء والرسل والأئمة ع لأنّ لهم الأثر الأعظم في وصول الإنسان إذْ لولاهم لما وصل إلى المقام المعنوي الذي وصل إليه، وقد جاء عن النبي ص: (أنا وأنت يا علي أبوا هذا الخلق، فمن عقنا فعليه لعنة

الله)[٦]، أي من أراد الإساءة لهما، ويظهر من ذلك أنه لابد من الثناء والتمجيد لهما، لهذا قال ص: (لا تصلوا علي الصلاة البتراء، فقالوا : وما الصلاة البتراء؟ قال : تقولون اللهم صل على محمد وتمسكون، بل قولوا : اللهم صل على محمد وآل محمد)[٧]، إذن علينا أن نلتفت إلى هذا المعنى وأنّ شكر الأبوين بعد شكر الله تعالى، لارتباط ذلك بعطائهما العطاء الضخم والكبير الذي يقدمانه خصوصًا ما تقدمه الأم، أما شكر الأنبياء والرسل والأئمة ع لأنّ تكامل الجانب المعنوي في شخصية الإنسان بالتعاليم الجائية منهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ذلك أنّ عالم الخليقة يحتاج بعضه إلى بعضه الآخر، وتلك سنة تكوينية فلا يستطيع أحد أن يستغني عن أحد، والازدياد في ذلك مربوط بالشكر، وكل رئيس ومرؤوس لهما رتب مختلفة، ومن أراد التكامل في سلم الرتب عليه أن يقدم الثناء والشكر لمن يرأسه، ليتقرب إليه، وهذا الأمر ليس مقبولاً فحسب، بل أُمر به، فمن أحسن إليك لابد أن تقدم له ثناءً وشكرًا، وإذا لم تفعل لم تشكر الله تعالى، ومن أراد لأبنائه أن يتألقوا فعليه تعلم الثناء والتمجيد والشكر لمن أحسن إليه، قال تعالى: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾(الرحمن:٦٠)، ومن لم يفعل ذلك فقد أنكر الجميل، وسوف تغلق الأبواب أمامه، ولعله أحد المعاني لقوله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾(إبراهيم:٧).

ولهذا رُبط تحديد معنى "الحمد لله رب العالمين" بالمبحث من الناحية الأخلاقية، وعلى الأستاذ أن يتعامل مع تلامذته من خلال هذا المبدأ، وهكذا على الأبوين أن يتعاملا مع أبنائهما بالتأكيد على احترام الأستاذ، وعدم الإساءة إليه، بل الثناء عليه، وتمجيده، وقد ذكر أستاذنا الشيخ الوحيد في درسه بعض

٦- بحار الأنوار - العلامة المجلسي ج٣٤ ص٣٣٣.

٧- شرح إحقاق الحق للسيد المرعشي ج٣ ص٢٧٤.

الآثار الوضعية لتلميذ مع أستاذه، فقال كان أحد الأساتذة دقيق النظر، ويأتي بمسائل عويصة، ومن الواضح أنّ التلميذ يتطور باستمرار بكثرة حضوره حتى يطبخ على نار هادئة خصوصًا إذا كانت نيته خالصة لله تعالى في حضور دروسه، فإنه سيتكامل بشكل تدريجي، غير أنّ بعض التلامذة قد يتغلب عليه الشيطان عندما يصل إلى مرحلة علمية عالية فيرى نفسه أنه يفهم المسائل بشكل دقيق، فيغتر بنفسه، بل قد يرى أنه أفهم من أستاذه، وفي مثالنا طرح الأستاذ مسألة ثم عقّب قائلاً، وفي المسألة نظر، فقال التلميذ: لا نظر فيها، بل هي صحيحة، فردّ الأستاذ بقوله: فيها نظر، فقال التلميذ لأستاذه: في نظرك نظر، بنحو الاستهزاء.

وننبه هاهنا أنه لا مانع من مناقشة التلميذ لأستاذه بنحو علمي وموضوعي وباحترام جم لمقام الأستاذية، أما إذا لم يحترم فإنّ الله تعالى يزيل بركة العلم، فلا يكون لعلمه فائدة، وهذه مسألة أخلاقية ينبغي أن نعلمها لأبنائنا، لأنهم إذا افتقدوها قد يصابون ببعض الكوارث التي تؤثر على مستقبلهم العلمي، وبالفعل هذا ما حصل للتلميذ فقد خرج من الدرس مصابًا بآفة في ظهره، وكان الأستاذ شيبة فانتقل إلى رحمة الله تعالى وبقي التلميذ دون أن يعتذر من أستاذه، لكنه أدرك أنّ عليه تلافي ذلك الخطأ الذي وقع فيه بالإحسان إلى أبناء ذلك الأستاذ، فتعجب منه بعض، كيف كان يتعامل مع أستاذه بعنجهية؟ فأصبح يتعامل مع أبناء أستاذه بتواضع وخلق، لكنه تعلم من تلك الإساءة درسًا أثّر على حياته بأجمعها.

إنّ مسألة "الحمد لله رب العالمين" من المسائل الأخلاقية الكبيرة، ويهمنا في هذا التفسير أن نفقه الحيثيات الأخلاقية من معاني الآيات، فكل آية لها مسار أخلاقي، إذا فُهم ذلك المسار الأخلاقي استطاع المؤمن أن يجسده في سلوكه.

تقاطع الحمد مع الشكر

يتقاطع الحمد مع الشكر لكونه ثناء، وقد ورد في بعض خطب إمامنا أمير المؤمنين ع ما يدل على هذا التلاقي أي أنّ الإنسان قد يحمد الله تعالى شكرًا لنعمائه ويثني عليه لسبوغ آلائه، أي يظهر مجد الله تعالى ومدحه فيتقاطع الحمد والشكر بهذه الحيثية التي ذكرناها.

وللعلماء بحث، بعنوان "وجوب شكر المنعم بحكم العقل" خلاصته: أنّ من أنعم عليك بنعمة حكم عقلك بوجوب الثناء والشكر له، وقد قلنا: إنّ الحمد لا يشترط أن يقترن بالنعمة لأنه ثناء على جميل اختياري بغض النظر عن كون المنعم أنعم أم لا، فهو يستحق أن يُحمد، وهنا نريد أن نبحث حيثية التقاطع بين الحمد والشكر، إذْ أنّ العلماء أفصحوا عن حكم العقل بوجوب الشكر والثناء على المنعم، ونحن نعلم أنه لا نعمة ينعم بها غير الله تعالى إلاّ وهي راجعة إليه تعالى لأنّ جميع النعم كما اتضح من أنّ الألف واللام إما للجنس أو الاستغراق راجعة إلى الله تعالى، وأنّ النعم التي تأتي من غير الله تعالى مصدرها هو تعالى والمرء يدرك ذلك أنّ ما به وما لديه وما عنده من نعم فمن الله تعالى، إذن عقله يدعوه إلى الثناء على الله تعالى وإلى حمده وشكره تعالى، ولعل هذا هو المعنى الأعمق لقوله تعالى: ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ ﴾(النحل:١٨)، لكون نعم الله تعالى كثيرة وعقلنا يحكم بوجوب الثناء الدائم، والمرء لا يدرك كيفية الثناء والمدح والنعمة، والله تعالى يعلّم الإنسان الكيفية المثلى لحمده وهي: "الحمد لله رب العالمين" فيكون الحمد ثناءً على الله تعالى وشكرًا له تعالى لكونه المنعم بغض النظر عن كونه يستحق المدح، نعم؛ هو يستحق أن يُمدح لكنّ حمده بالمعنى الدقيق الذي يتقاطع مع شكره، ألا وهو وجوب معرفته تعالى، كي يثني على الله

تعالى لمعرفته به، ولا يثني على مجهول مطلق، من هنا لابد أن تعرفه بنحو ما لتثني عليه، ومعرفة أنّ ما لديك من نعم مصدرها الكامل المطلق صحح الحمد.

إذن استبطن حمده تعالى وجوب معرفته تعالى، وهذا بحث عقدي أخلاقي لارتباطه بالربوبية التي تستبطن المالكية.

الجانب الربوبي للمنعم

هنا بحث أخلاقي وهو أنّ الإنسان إذا التفت إلى جانب الربوبية واستلزامها المالكية والإنعام والعطاء الدائم الذي لا ينقطع عن الإنسان قبل خلقه وبعد خلقه، سيلتفت إلى معنى إجابة دعاء الحامد، قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾(آل عمران:١٩٥)، إذن الرب يستبطن معنى الاستجابة لمن يحمد الله تعالى ويذكر أنّه تعالى يتصف بالربوبية، لأنّ المعنى يستبطن إجابة من الحق للحامد، ونحن إذا رأينا كل الأنبياء سنجد أنّ أدعيتهم التي استجيبت تضمن دعاؤهم فيها وصف الله تعالى بالربوبية حتى الدعاء على إهلاك القوم كما في دعاء نوح ع على قومه: ﴿ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴾(نوح:٢٦)، أي أنّ الأعمال التي قام بها الأنبياء وُصف فيها الحق بالربوبية، لأنّ الربوبية تتضمن المالكية للحق تعالى، إذْ أنّ الوجود لما سواه ممكن، والممكن كله فقر وحاجة إلى مدد يمده آتٍ عن طريق ربوبية الحق تعالى، وهناك آيات قرآنية تفصح عن هذا المعنى، وعلى المؤمن إذا أراد الدعاء أن يقول: (يا رب يا رب يا رب أنت الرحيم)[٨] كي يستجيب الله تعالى دعائه، قد ورد أن الحق تعالى يجيبه بالتلبية، وفي الرواية جاء شخص إلى الإمام الصادق ع،

٨- وسائل الشيعة (الحر العاملي:ج ٧، ص ٨٦، عن أبي عبد عليه السلام قال : من قال : يا رب ، يا الله ، يا رب ، يا الله ، حتى ينقطع نفسه قيل له : لبيك ما حاجتك ؟

فسأل الإمام ع عن أقرب الأسماء لاستجابة الدعاء من الله تعالى؟ فقال له الإمام ع: ادخل هذا الماء البارد، فدخل في الماء، فلما رأى نفسه غير قادر على تحمل الماء البارد، قال يا رب خلصني يا رب خلصني، قال له الإمام ع: يا رب يا رب أقرب اسم يدعى به الحق تعالى لاستجابة دعاء الداعي.

والإمام ع هنا يعلمه بنحو عملي كيف يمكنه إذا وقع في شدة أن يفعل، وقد أدرك بوجدانه الفطري أنه بحاجة إلى ذلك المدد الذي لا ينقطع من عند الله تعالى، فقام يدعوه تعالى بربوبيّته، والدعاء مدد دائم، ولهذا فإنّ "الحمد لله" هو ثناء على الله تعالى، لكونه تعالى رب العالمين، ولا ذرة في الوجود إلاّ بوجوده تعالى، ولهذا استحق الحمد المطلق.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾

أسرار تكرار الرحمة

كررت الرحمانية والرحيمية لتبيان أمر غاية في أهميته وهو أنّ الحمد والثناء على الله تعالى مسببان عن رحمانية الله تعالى ورحيميته أي أنّه تعالى وفّق الإنسان لحمده وثناءه وشكره وأغدق عليه نعمه الظاهرة والباطنة برحمانيته ورحيميته، وهذا أمر ينطبق على كل المفردات الأخرى التي يقوم بها الإنسان بمعنى أنّ مبدأ الرحمانية والرحيمية هام في كل مجالات الحياة، ومنها: المجال التربوي والأخلاقي.

سر نجاح النبي [ص] اتصافه بالرحمة

نلحظ أنّ النبي ص يبين السر الكامل وراء نجاح دعوته وقبول الناس لاتباعه وهو الرحمة، قال تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾(آل عمران:١٥٩)، إذن يقول الله تعالى رَحِمـَك الرحمن الرحيم، ثم تجسدت الرحمة في أقوالك وأفعالك وأصبحت ليناً مرناً، لا فضاضة ولا غلظة عندك، ولذا اتبعك الناس، ولو كنت خشنًا لجفل الناس منك وابتعدوا عنك، وذلك أمر طبيعي، لأنّ الناس يحبون المتصف بالرحمة، ومن أهم سمات الرحمة المرونة والرفق واللين والانسجام مع الآخرين، ذلك أنّ الرحيم يحب الخير لهم كما يحبه لنفسه، ويريده لهم كما يريده لنفسه.

الرحمة مفتاح التكامل الإنساني

إنّ الإنسان لن يصل إلى كماله إلاّ بالرحمة، فإنْ أغلظ على نفسه فلن يتألق ولن ينمو، وستنهار قواه وتتلاشى قدراته بخلاف المرن اللين مع نفسه، فإنه سيتكامل بنحو طبيعي.

الرحمة في المجال العبادي

لو شدد الإنسان على نفسه في المجال العبادي وأتى بجميع الواجبات والمستحبات وترك المكروهات سيدور في فلك ضيق ولن يستطيع أن يقوم ببقية الأعباء المناطة به، وبالتالي سيترك الجانب العبادي، لكنه لو أرفق بنفسه وقام ببعض المستحبات بشكل تدريجي سيتكامل وتنمو شخصيته باطراد، وسيتجذر الجانب العبادي بسبب رحمته لنفسه.

الرحمة في المجال التعليمي

وكذا الحال لو أراد شخص أن يضغط على نفسه في المجال العلمي سيكره العلم، لكنه لو بدأ في مران مع نفسه وعلّم نفسه الصبر والقدرة على التحمل سينمو نمواً مطرداً وسيتوق إلى التحصيل العلمي بل سيصبح ذلك جزءً من شخصيته، والسبب هو رفقه بذاته.

إذن للرحمة انعكاسات إيجابية على النفس وعلى بقية مجالات الحياة.

الرحمة في المجال التربوي

من يقرأ قصص الآباء الناجحين مع أبنائهم سيرى أنّ الناجح مع أبنائه هو من انتفت الغلظة عن تصرفاته واتصف بالرفق والمرونة مع أبنائه لمعرفته

بطبيعتهم، وأنه لابد أن يصـــــدر غلط منهم لكنه ســــيغض الطرف عن ذلك وســــيتعامل بنحو من المرونة واللين، ومن ثم ســــينبه على ما ينبغي أن يقوم به الأبناء دون أن يسأم لرحمته بأبنائه، ولهذا سيتألق الأبناء في المجالات التي تعود عليهم بالخير، لعدم السأم من إسداء النصيحة وتكرار الموعظة ولهذا قال الإمام علي ع: (ومن رحمته أنه خلق مائة رحمة ، وجعل منها رحمة واحدة في الخلق كلهم ، فبها يتراحم الناس ، وترحم الوالدة ولدها ، وتحنو الأمهات من الحيوانات على أولادها)[٩].

إنّ رحمة الأب لا يمكن أن تقاس برحمة الأم، لما تتحمل وتقوم به، ومع ذلك فإنّ رحمتها هي من الرحمة التي جعلها الله تعالى في هذه الدنيا، وادخر تسعًا وتسعين رحمة يرحم بهم عباده المؤمنين الذين صدرت منهم الزلات.

الآثار السلبية مع فقد الرحمة

ينعكس الأسلوب التربوي على شخصية الفرد كما تنعكس شخصية المربي والأستاذ مع تلامذته والمسؤول مع من تحت مسؤوليته وإدارته، فإذا كان يتعامل على وفق مبدأ الرفق والرحمة واللين والشفقة ترى أن التوفيقات تغمر من معه وتنمو باطراد، وتزول المعوقات، والعكس من ذلك صحيح، وكمثال على ذلك ما نشاهده من كوارث بيئية كالاحتباس الحراري وما يصدر عنه من آثار سلبية، فإنه يترتب على عدم الرفق والرحمة بالطبيعة، إن من لديه رحمة في ذاته وشخصيته يسير نحو الخير مع الناس ومع مفردات الكون.

٩- تفسير الإمام العسكري (ع)،الإمام العسكري (ع)، ص ٣٧.

الآثار الإيجابية للرحمة

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَۖ﴾(آل عمران:١٥٩)، أوجز النبي ص من مفردة من مفردات الرحمة من خلال تشبيهها بالجمال الذي تزدان به الأشياء، وإذا نزع منها عادت قبيحة، فقال ص: ((إن الرفق لم يوضع على شيء قط إلا زانه، ولم يرفع عنه قط إلا شانه))[١٠]، إن من أهداف تكرار الصلاة اليومية ترسيخ مبدأ الرحمة، إذ تتعدد قراءة الفاتحة في الصلوات اليومية ليتجذر عمق الرحمة، وقد أُكّد على ذلك بأن الصلاة لا تقبل إذا لم يفقه المصلي كلماتها، ولم يقبل بقلبه على الله، والهدف هو إيصال المؤمن إلى تأثير الصلاة، التي سيتصف بها بالرحمة وسيرحم غيره، إذ أن من كرر شيئاً تأثر به، لهذا سيكون رحيماً على نفسه وسيفيض الرحمة على غيره.

١٠- بحار الأنوار: ج١٦ص٢٥٨.

﴿مالك يوم الدين﴾

مالكية الله للوجود

﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ أي مالك يوم الجزاء، وهو يوم القيامة يجازي فيه الله تعالى الخلائق، وبالرغم من أنّ الله تعالى مالك لكل عوالم الوجود لكنّ الآية ركزت على مالكيته تعالى ليوم الدين، لسبب سنعرضه بعد أن نبين معنى مالكيته.

أقسام الملكية:

الملكية على أقسام متعددة:

الأول: الملكية الاعتبارية

وهي التي يتداولها الناس بالإرث والحيازة والبيع والشراء والهبة وسائر المعاوضات الأخرى، وهذه ملكية اعتبارية، أي أنّ ملكية الإنسان في الحياة الدنيا لبعض الأمور ملكية اعتبارية فهو يملك بيتاً ومزرعة وأموالاً ملكية اعتبارية لأنّ العقلاء اعتبروه مالكاً لها، وقد تلغى هذه الملكية من لدن العقلاء، ولهذا نجد بعض الأنظمة تلغي الملكية الخاصة وتعتبر جميع ما تقدم ملكاً للدولة كالنظام الشيوعي، وهذا اعتبار من لدن المجتمع، والإنسان بطبعه يدرك حقيقة هذه الملكية إذْ أنّ الشيء فيها لا يبقى ولا يستمر بل تزول ملكيته بالغصب والبيع والهبة والموت، إذن إطلاق الملكية على الأمور بهذا النحو يرجع إلى الاعتبار ويزول تبعاً للاعتبار أيضاً.

الثاني: الملكية الحقيقية.

النمط الثاني من الملكية هو الملكية الحقة أو الحقيقية كملكية الإنسان لأجزاء بدنه فهو يملك يديه ورجليه وعينيه وجسده ويتصرف بها فيما يحب، وهي ملكية أرقى من الاعتبارية لكنها تزول أيضاً عن الإنسان كمن يصاب بحادث فيفقد يده أو عينيه، إذن هذه ملكية درجة التصرف فيها والاستيلاء عليها والانتفاع بها أقوى من الملكية الاعتبارية.

الثالث: الملكية القيومية.

إنّ الله تعالى يملك الأشياء بنحو يختلف عن الملكية الاعتبارية وعن الملكية الحقيقية أو الحقة، أي أنه تعالى يملك الأشياء ملكية هيمنة واستيلاء وتقوّم، وحري بنا أن نطلق على هذه الملكية ملكية قيومية، ومعناها أن لا وجود للملوك إلاّ بالعطاء الآتي من مالكه، ولولا أنّ الله تعالى يعطيه لكان المملوك لا شيئية له، لأنه لا وجود له إلاّ بالعطاء الآتي من قبل الحق تعالى.

وكي يتضح ذلك فإنّ الإنسان إذا رفع شيئاً بيده، فإنّ كون الشيء مرفوعاً يتوقف على الرافع، إذْ لولا أنه رفعه لما ارتفع، ولهذا فإنه بمجرد أن يدعه يسقط، أي لا يبقى مرتفعاً، والمخلوقات تماثل ذلك ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾(النحل:٦٠) فلا وجود لها ولا تقوّم إلاّ بالمدد والعطاء الآتي من الحق تعالى، وهذا النمط الثالث من الملكية القيومية يتضح بإدراك معنى الحي القيوم فهو قائم على الخلق بالنعم والعطاء أي أنه هو العلة المعطية والمانحة لوجود الأشياء، ولولا استمرار عطائه لانمحت الأشياء عن الوجود، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ

﴿ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ ﴾ وقيوميته تعالى واقعية أي لا تقوم الأشياء إلاّ باستنادها إليه تعالى.

خصائص الملكية القيومية

أولا: إختصاصها بالله وحده

إذن هذه الملكية القيومية واقعية لا تزول، ولهذا فإنّ الإنسان يملك الأشياء ليس على نحو الحقيقية بل بالاعتبار، فقد يفقد عقله، ويصبح سفيهاً فيحجر عليه، ولا يستطيع أن يتصرف فيما يملكه بخلاف مالكية الله تعالى فهي لا تزول، قال تعالى: ﴿ لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ ﴾(البقرة:٢٨٤)، أي أنّ جميع وجملة مفردات الوجود مملوكة له تعالى بالملكية القيومية، ولا يمكن لأحد أن يهيمن على شيء كهيمنة الحق تعالى، فهو مالك للأشياء ملكية واقعية في الدنيا والآخرة، غير أنّ مالكية الحق تعالى القيومية لا تظهر لأكثر الناس لغشاوة على بصائرهم، فلا يدركون المعنى الحقيقي لمالكيته تعالى مفردات عالم الوجود، ولهذا فإنّ بعض الناس لا يتوجه للمعنى المتقدم بل يعتبر نفسه مالكًا فيقول: هذا مالي، وذلك لي، ويسند الأشياء إليه أو إلى غيره من الملوك والسلاطين في عالم الدنيا.

ثانيًا: يوم القيامة تتضح الملكية

ظهور القيومية في يوم القيامة لا يعني إلغاء الملكية في عالم الدنيا، فهو تعالى قيوم في الدنيا والآخرة، غير أنّ الإنسان لديه وسائط وأسباب ومسببات في عالم الدنيا تحجبه وتسدل ستاراً سميكاً على رؤيته الواقعية التي يتبين منها مالكية الحق للخلق، فلا يستطيع الإنسان أن يعرف أو يرى الملكية القيومية

والواقعية للحق تعالى إلاّ في عالم القيامة، قال تعالى: ﴿ فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾(ق:٢٢)، لانتفاء الوسائط في عالم القيامة، حتى الشفاعة لا تكون إلاّ لمن ارتضى، وبإذن من الله تعالى، ولا يقدر أحد أن يتصرف في القيامة إلاّ بإذنه، من هنا يظهر معنى قوله تعالى: ﴿ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾(غافر:١٦) لأنّ الجميع خاضع خضوعاً مطلقاً، قال تعالى: ﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾(مريم:٩٣).

ثالثاً: لا إبهام ولا خفاء في ملكيته تعالى

ولعدم الخفاء في القيامة عبّر الحق تعالى: بأنه مالك يوم الدين، لتجلي وظهور الحقائق ووضوح الرؤية فلا غطش ولا إبهام، لأنّ الناس كلهم يرون مالكية الحق للموجودات بوضوح، وأنه تعالى هو المتصرف المطلق، فيسأل الحق الخلق عن مالكيته فيجيبون، قال تعالى: ﴿ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴾(غافر:١٦).

ملكية الله للعالم المادي

مالكية الله تعالى لعالم المادة ظاهرة من خلال الربوبية إذْ أنّ معنى الرب هو المالك والمربي في عالم الدنيا، والأشياء التي تحتاج إلى تربية وإيصال إلى الكمال تكفل الله تعالى من خلال ربط بعض أجزاء الوجود ببعضها الآخر واستفادة بعضها من بعضها الآخر، والمدد الذي يعطيه الله تعالى لخلقه باستمرار لا ينقطع، فهو مالك لعالم الدنيا، ويظهر ذلك بحمده: "الحمد لله رب العالمين" غير أنّ هذا لا يتاح لكل أحد بل لمن سار في طريق عبودية الحق تعالى، فإنّه سيصل إلى إدراك مالكية الله تعالى، خصوصاً إذا أمعن النظر متأملاً

في دقائق عالم الوجود، ولم تصرفه النعم الظاهرة التي تغدق عليه، بل استفاد منها بعلمه وتأمله أنها من عند الله تعالى، ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾(النحل:٥٣)، فإنه بالتأمل والعبادة والامتحان والبلاء الذي يصيبه سيرجع إلى الله تعالى مبتهلاً أن يخلصه من الشدائد، وسيفرج الله تعالى عنه فيحمده بعد بلائه وستظهر له مالكية الله تعالى لعالم الموجودات إلاّ أنّ من يدرك ذلك هو بعض الخلق، أما الجميع فإنه سينكشف لهم ذلك انكشافاً تاماً لا إبهام يعتريه، وستتجلى لهم المالكية والملكية والقيومية الواقعية في القيامة، ولعله لهذا ذُكر يوم الدين، قال الإمام الصادق ع: (هو يوم الحساب ويوم الجزاء).

الإنسان مسؤول عما يصدر منه

ركّز الله تعالى على مالكيته ليوم الدين، وهو يوم الجزاء ليعطي الإنسان درساً غاية في الأهمية وهو درس المسؤولية، كي يلتفت إلى نفسه ويعي مسؤوليته، وأنّ ما يصدر منه من أقوال وأفعال وأعمال سيُسأل عنه.

تأثرات الأفعال:

للأفعال تأثيران:

الأول: التأثير الوضعي

وهو تأثيره في الإنسان، فإنه إذا عمل عملاً قبيحاً أثّر عليه، وإنْ عمل عملاً صالحاً أثّر عليه، وبعض الأعمال يكون أثرها معجلاً كصلة الرحم وبر الوالدين والصدقة وبعضها أثرها مؤجلاً، كالإحسان إلى الناس بالأقوال والأفعال، فإنّ تأثير ذلك قد يؤجل إلى حين.

الثاني: التأثير الجزائي

وهو في عالم الآخرة بمعنى أنّ الإنسان يتعجب من أفعاله وأعماله في يوم القيامة، قال تعالى:﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ﴾(الإسراء:١٣)، وقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾(الكهف:٤٩).

نسيان المسؤولية الجزائية

ينسى الإنسان عالم الآخرة في زحمة مقتضيات عالم المادة إلاّ القليل ممن يلتفت إلى الله تعالى خصوصاً في فترة شباب الإنسان، ووجود الصحة والمال والأصدقاء فإنّ الكثير ينسى المسؤولية الجزائية في عالم الآخرة، وقد لا يلتفت إليها إلاّ إذا ابتلاه الله تعالى ببلية كالأمراض وفقدان المال والولد، رغم أنّ تذكر المسؤولية الجزائية هو ما ينبغي أن يوليه الإنسان العناية الفائقة، قال تعالى: ﴿ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾(الصافات:٢٤).

استشعار الرقابة الإلهية

لا يعي الإنسان مسؤوليته في الأعم الأغلب إلاّ إذا تمكن الإيمان في ذاته، وترسخ في عمق وجدانه، واستشعر عظمة الحق وعرف الرقابة الذاتية عليه، وأدرك معنى قوله تعالى: ﴿ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾(ق:١٨)، إنّ الله تعالى جعل كل شيء في الكون يشهد على الإنسان، جلده وجوارحه والمكان الذي هو فيه، بالإضافة إلى الملائكة وإلى الله تعالى، قال سبحانه: ﴿ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ ﴾(فصلت:٢١)، الآيات تلفت انتباه

الإنسان إلى حيثية محددة، وهي المسؤولية العامة والجزاء العام الذي سيتحقق في مشهد القيامة، وأنّ الله تعالى يسأل الخلق عن جميع وجملة ما صدر منهم وعنهم من أفعال وأقوال، ولذلك لا ينبغي للإنسان أن ينسى الله تعالى لحظة واحدة بل عليه أن يستشعر الرقابة الإلهية وعظمة الله تعالى ويستذكر يوم الـ

الأنبياء يستشعرون المسؤولية الجزائية

أبان القرآن الكريم فارقًا نوعيًّا بين من انصهر في بوتقة عبودية الله تعالى وبين سائر الناس، موضحًا أنّ من الميزات التي تميز بها الأنبياء والرسل عن غيرهم أنه تعالى أخلصهم بخالصة ذكرى الدار، أي جعلهم يستشعرون عظمة الحق ويعون المسؤولية الجزائية لما يصدر منهم من أقوال وأفعال، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾(ص:٤٦)، بينما قد يكون بعض الناس تصدر منه القبائح والذنوب الكبيرة وهو لا يستشعر شيئًا، ولعل ذلك يرجع إلى بعض الأمور:

منها: عدم إدراكه مالكية الله تعالى ليوم الجزاء.

ومنها: أنه لا يدرك عظمة ذلك اليوم، وأنه يوم المسؤولية تجاه الحق تعالى.

التركيز على المسؤولية الجزائية

يركز على المسؤولية الجزائية لله تعالى لوجود ارتباط بين نواحي متعددة:

الأولى: الحيثية العقدية

إذْ أنّ إيمان الإنسان يرتبط بمسؤوليته الجزائية تجاه الخالق، وهي مسؤولية لها ارتباط وثيق بعالم الغيب، وبالجانب العقدي الإيماني للشخص.

الثانية: الحيثية التكاملية

إنّ تكامل الإنســان المعنوي يرتبط بالتصـديق بيوم الدين، والعمل الجاد له وإدراك المســـــؤولية تجاهه للعلم بذلك، قال تعالى: ﴿ وَقِفُوهُمْۖ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ ﴾(الصـافات:٢٤)، ولا يمكن أن يتكامل من لم يعِ مســألة الفعل والجزاء المترتب عليه، ذلك أنّ كمال الإنســـان المعنوي يرتبط بمالكية الله تعالى ليوم الجزاء، فمن عرف ذلك وصــــل إلى عمق الإيمان، وأُتيح له أن يتكامل بنحو تدريجي لأنّه سـيقف عندما يقوم ببعض الأفعال متأملاً بل سـيحتاط، فإذا رأى حراماً تركه، أو حلالاً جاء به، أو شــبهة توقف عندها، وعليه فإنّ المســؤولية الجزائية لها بعد تكاملي وبعد أخلاقي بمعنى أنّ الله تعالى يذكر بمالكيته ليوم الدين لأنّ الإنسان لا يتكامل أخلاقياً دون هذه المسؤولية الجزائية، قال الإمام أمير المؤمنين ع: (من أمن العقاب أساء الأدب)، لأنه سيصبح غير مبالٍ بما يصدر منه من قول أو فعل، ولن يحاسب نفسه على ذلك، لكونه لا يستشعر العقاب والأثر الوضعي المترتب عليه، أما من استشعر ذلك وعرف البسملة والحمْدَلَة، ورسُخ التوحيد في ذاته وأيقن بالمعاد، إذْ أنّ التوحيد لا يكتمل معناه إلاّ بالمعاد، فإنه ســيصــل إلى عمقه الوعي بالمسؤولية الجزائية.

العلاقة بين البعد العقدي والإيمان المعاد

قوله تعالى: ﴿ مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴾ يعطينا البعد العقدي وهو الإيمان بعالم الآخرة المرتبط بالحق تعالى، ذلك أنّ الإيمان بالمبدأ يستلزم الإيمان بالمعاد، نعم؛ هناك كثير من الناس يؤمنون بالمبدأ دون إيمانٍ بالمعاد، وقد ذكر القرآن الكريم العرب حيث إنّ بعضـــــــهم يؤمن بالله تعالى ولا يؤمن بالمعاد بل يرى أنه إذا مات انتهى وجوده، وليس هنـاك معـاد بـل الـدنيـا فقط، وهي مجرد فترة امتحـان واختبار، عســــير على بعض ويســــير على بعضٍ آخر، وهناك تفاوت بين الناس بمسؤوليتهم تجاه ذلكم الاختبار.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

انحصار العبادة في الله تعالى

في الفاتحة حيثيات هامة منها: أنّ بعض الآيات مفسرة وشارحة للآيات الأخرى أي توضح مقصد الآية التي بعدها من حيثية أخرى، فقد جاء بعد ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ ثم جاء ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي نعبد الرحمن الرحيم الذي له الحمد وهو المالك ليوم الجزاء، وسوف يتضح أنّ من يختص بالعبادة هو الله تعالى المتصف بالصفات الكمالية المطلقة والجمالية الكاملة والتامة، فتنحصر فيه العبادة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فإذا قُدم المفعول به في اللغة العربية أفاد الحصر أي حصر العبادة على الله تعالى، فيكون معنى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أنّ العبادة لا تكون إلاّ لك، والقرآن الكريم صرّح بأنّ المعبود المطلق ومن له حق العبادة هو الله تعالى في آيات متعددة، منها: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(الأنعام:١٦٢–١٦٣)، فلا تكون العبادة إلاّ لله تعالى.

مفهوم العبادة

أُخذ في العبادة مجموعة حيثيات:

الأولى: الخضوع والخشوع التام لله تعالى

أي أنّ الخضوع والخشوع التام من لدن العابد للمعبود، شرط في العبادة لكنه لا يكفي لتحقق العبادة بل لابد أن تتوافر صفات في المعبود يعتقد بها العابد، وفي الفاتحة إيضاح لهذا المطلب إذْ أنّ العابد يعتقد أنّ الله تعالى مالك يوم الدين، وهو مالك للحياة والموت، وبالتالي هو الكامل المطلق الذي هو وراء

ما يتناهى بما لا يتناهى أي أنّ عالم الإمكان المتناهي هو الذي أوجده وهو تعالى لا حدود لكماله، إذن فإنّ أول حيثية تتوافر في العبادة هي الخضـــــوع للمعبود الموصوف بصفات لا يتصف بها غيره.

الثانية: الاعتقاد بتفرد الملكية المطلقة لله تعالى

هي أن يعتقد العابد أنّ من يخضـــع له يمتلك شــــيئاً لا يمتلكه غيره، كالإحياء والإماتة والرزق بالاســـــتقلال وله الكمال المطلق، وأنّ ﴿ بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾(الملك:١)، وهذه أمور لا تكون إلاّ لله تعالى، أما الخضـــــوع وحده لغير الله تعالى دون اعتقاد باختصاصه بصفات دون غيره فلا يكون عبادة لأنّ الله تعالى أمرنا أن نخضـــــــع للوالدين، قال تعالى: ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾(الإسراء:٢٤)، ومن أدب المتعلم أن يخضع لمعلمه بل أنّ أقصى درجات الخضوع وهي السجود لا تكون عبادة إلاّ بتوافر الحيثية التي ذكرناها آنفاً، ولهذا أمر الله تعالى الملائكة بالسجود لآدم، وسجد يعقوب ع ليوسف ابنه، لعظم مقامه، قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾(البقرة:٢٥٣)، ومن الواضح البيّن أنّ سجود الملائكة وسجود يعقوب ع لا يتنافيان مع عبادة الله تعالى وحده.

نعم؛ في شريعتنا الإسلامية الغراء يحرم السجود لغير الله تعالى، لكنها حرمة تشريعية، وعليه فإنّ العبادة لا تتحقق إلاّ إذا اعتقد الساجد أنّ من سجد له يمتلك خصـــائص لا تكون لغيره كالإحياء والإماتة والرزق والكمال المطلق الذي لا يكون لغيره.

معاني العبادة

إذن العبادة لا تكون إلاّ لله تعالى، أما الخضوع للأنبياء والرسل والأئمة من أهل البيت ع لمقاماتهم فليس عبادة لهم كما تصور ذلك بعض قاصري النظر، وكي تتضح المسألة فقد ورد عن الإمام الباقر (ع): (من أصغى إلى ناطق فقد عبده فإن كان الناطق يؤدي عن الله عز وجل فقد عبد الله وإن كان الناطق يؤدي عن الشيطان فقد عبد الشيطان)[١١].

والرواية تشرح أحد معاني العبادة، وتوضح أن الاستماع لمن يتحدث قد يؤدي إلى العبادة بمعنى الطاعة، فإن كان ينطق عن الله تعالى فسوف يؤدي إلى إطاعته تعالى، وإن كان ينطق عن الشيطان فسيؤدي إلى مسلك الشيطان.

العبادة بالمعنى الخاص

المعنى الخاص للعبادة هو إظهار تمام الخضوع والخشوع التام لمن اتصف بصفات الكمال، كالإحياء والرزق بالاستقلال، وهو الحق تعالى، فمن أدى الصوم أو الصلاة لله تعالى معتقداً بأنه هو المحيي المميت وهو على كل شيء قدير، فإن عمله يكون عبادة بالمعنى الخاص.

العبادة بالمعنى العام

أما المعنى العام للعبادة فهو التقيد بقوانين الحق تعالى، والسير على وفق ما يريده الله تعالى في معاملات الإنسان وشؤونه المختلفة، بمعنى أن يفعل المكلف ما يريده الله تعالى، وهذا المعنى هو المراد بقوله تعالى: ﴿ وَكَانُوا لَنَا

---

١١ - الكافي - الشيخ الكليني - ج ٦ - ص ٤٣٤.

عَٰبِدِينَ ﴾(الأنبياء:٧٣)، أي أنهم لا يسيرون إلاّ على وفق ما يريده الحق تعالى، وهناك شيء نريد أن نوضحه، وهو أن بعض المفردات العبادية لا يجوز أن تؤدّى إلا لله تعالى، كالصلاة والصوم، وكذا أجزائها كالقيام والقعود والركوع والسجود، وإذا تأملنا سنرى أن جميع العبادات لا يجوز أن يؤتى بها لغير الله تعالى، فبر الوالدين عبادة يتقرب بها إلى الله تعالى، ومن أراد أن يكون برّه عبادة فإن عليه أن يخضع ويتذلل لله تعالى، الذي له الأمر والخلق، قال تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ ﴾(الأعراف:٥٤)، أما من سجد دون أن يحقق هذا الشرط فلن يكون سجوده عبادة، والذبح عبادة لها شرائط، لابد من توافرها، كالتوجه إلى القبلة وذكر اسم الله تعالى وتحقيق شروط التذكية، أما إذا اختل بعض الشرائط فلن يكون الذبح صحيحًا.

ويحسن بنا هنا أن نبين أمراً جد هام، هو أن بعضاً يذبح للحسين ع أو للعباس ع، غير أن من يتأمل سيجد أن إضافة الذبح للحسين والعباس ع هي من الإضافة لأدنى ملابسة، كالذبح للأب أو للأم أو للحاج أو للضيف، لا يراد به أن الذبح لهم على نحو الحقيقة، بل يراد منه نمو العلاقة، وعليه فلن يرد إشكال لمن ذبح لعالم من أجل إكرامه، أو صديق لزيارته، ولكن الذبح في حقيقته لله تعالى، وليس للصديق أو الأب أو الحسين أو العباس ع.

ونطلق على مثل تلكم الأمور لأنها موجبة للباعثية، أي أن السبب الداعي إلى الذبح هو زيارة العالم أو مجيء الأب أو بر الأم، كما كان يذبح النبي ص لخديجة ع، بمعنى أنه يذبح لله براً بخديجة، لكونه رزق منها الولد، وسبقت غيرها إلى الإيمان، والإضافة لخديجة لأدنى ملابسة، ولهذا لم يستشكل أحد من أتباع أهل البيت ع ولا غيرهم في ذلك، نعم أشكل بعض من لم يفهم حقائق الدين وتصور أن ذلك ينافي التوحيد، والحال أنه ليس كذلك، ونؤكد هنا أنّ

العبادة بمفرداتها لا تكون إلا لله وحده، وبذلك يتضح أن زيارة المعصومين ع ليست من العبادة لهم، لأنهم عباد مكرمون يشهد لهم الخلق بالعبودية الحقة دون ما سواهم، (وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله)، وهكذا نقول في الزيارة (أشهد أنك قد أقمت الصلاة وآتيت الزكاة وأمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر)، أي أن من دواعي زيارتك هو تمحض عبوديتك للحق تعالى.

والخلاصة لا أحد من أتباع أهل البيت (ع) يعبد الأئمة أو النبي ص، نعم يؤمنون بمقامات لهم تدلل على عبوديتهم، وقد أوضح العلماء في رسائلهم العملية أنه لابد من توافر شرائط في الذبح ليكون لله تعالى.

العبادة أمر فطري في الإنسان:

﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾(الفاتحة:٥).

بيّنا أنّ تقديم المفعول به يفيد الحصر أي حصر العبادة بالله تعالى فهو المعبود بحق لا سواه، أي أنّ عبادة غيره ليست عن حق بل بالباطل أما الله تعالى فعبادته حقة لاستجماعها لجميع صفات الكمال والجمال.

ونشير إلى مطلب جد هام وهو أنه بعد أن بينّا معنى العبادة يحسن بنا أن نوضح أنّها أمر فطري في الإنسان أي أنّ الله تعالى فطر الإنسان على العبادة وكما أنّه هناك أمور فطرية لدى الإنسان لا يستطيع أن يستغني عنها لأنّ وجود الإنسان يعتمد عليها كالأكل، فلا يمكنه أن يستغني عنه لأنّ الله تعالى جعل قوامه واستمرار وجوده به، فهو يجوع ويحتاج إلى غذاء، وكذلك الجنس فلا يمكن أن يستمر بقاؤه دون احتياجه إليه.

إذن هناك أمور فطرية لدى الإنسان فطره الله تعالى عليها، والعبادة منها فلا يمكنه أن يستغني عنها لكونه يحتاج إلى إشباع الجانب الفطري غاية الأمر أنه قد يعبد المعبود الحق وهو الله تعالى وقد يعبد صنمًا أو وثنًا مخلوقاً لكنّ

إظهار العبادة والخضــوع وإدراك أنه بحاجة إلى الاســتناد إلى قوة عليا مهيمنة على الكون أمر فطري، لا ريب في ذلك، وقد ذُكر في قصــة الحضــارة لويليام جيمس ديورانت (William James Durant) أنه: لا يوجد قوم إلاّ ولديهم معابد وإظهار للعبودية بنحو ما، فكل مجتمع من المجتمعات البشرية منذ القدم عندما ننقب ونبحث في سيرته نجد أنّ له نمط خاص من العبادة.

الإعراض عن العبادة

وإذا كانت العبادة من الأمور الفطرية التي فُطر عليها الناس وهم بحاجة لها، فلماذا نجد بعضهم لا يظهر هذا الأمر الفطري بل ويعرض عنه؟

الجواب: أنّ الأمور الفطرية على قسمين:

الأول: بيّن الوضوح كالأكل والشرب للإنسان.

الثاني: ما يمكن لبعض الناس الاستغناء عنه رغم كونه بيّن الوضوح لكنّ الإنســان يكابر فيه رغم احتياجه إليه، ومنه الجنس، فهو أمر فطري لكنّ بعض الناس يمكنه أن يعرض عنه، ولا يقال إنّ إعراضه عنه دليل على عدم فطريته بل الصــحيح أن يقال: إنّ ذلك نشــأ من عدم اســتقامة الفطرة، وبذلك تحقق الخروج عن قوانينها، وكذا الحال عندما يعرض بعض عن العبودية والخضــوع لله تعالى، فلا يقال إنّ العبودية والخضــوع ليســا من الأمور الفطرية، لأنّ ذلك نشأ من شذوذ في الفطرة، ولكل قاعدة شواذ كما شذّ بعض الناس عن احتياجه للجنس أو كابر في ذلك رغم أنّ الحاجة إليه فطرية.

أهمية العبادة

أولاً الوصول إلى الكمال المعنوي

رُكّز على العبادة لما يترتب عليها من كمال معنوي للإنســـان فلا يكتمل معنوياً إلاّ بها، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴾(الذاريات:٥٦-٥٨)، وفي الآية نجد أنّ غاية الخلق أن يصل إلى عبودية الحق تعالى ليسير في صراطه المستقيم، إذن كمال المخلوق في عبادة خالقه، ولا يمكنه أن يكتمل دون أن يلتفت إلى هذا الأمر الفطري المركوز في جبلته، والسر في وصول الإنسان إلى كماله بالعبادة أنّ العبادة غذاء للروح، وهي بمعناها الخاص وحتى بمعناها العام أي بمعنييها اللذان أوضحناهما فيما مضى الغذاء المعنوي للإنسان، فهو كما يحتاج إلى غذاء مادي ليستقيم وجوده فيأكل أنماط الأطعمة لتكون صحته جيدة، وإذا نقص غذاءه المادي سقم بدنه وأصبح مريضاً معتلاً لنقص التغذية، لكون بعض الأمراض سببها نقص الغذاء، فإنّ العبادة كذلك غذاء معنوي لروح الإنسان، وعدمها يؤثر سلبًا على شخصيته المعنوية.

ثانياً استقامة الروح .

وعليه فكما يحتاج الإنسان في جنبته المادية إلى غذاء صحي يوفر له استقامة جسده كذلك يحتاج أيضاً إلى أنماط من العبادة توفر له استقامة روحه، لتصبح مستقيمة ونامية باطراد بل موصلة له إلى درجة الاطمئنان واليقين، قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾(الحجر:٩٩) أي أنه يصل إلى العلم القطعي التام، ويمكنه إدراك حقائق عالم الوجود بالعبادة التي هي

غذاء معنوي لجنبته اللّامادية، لكون الإنسان له جنبتان: مادية ولها غذاء مادي، ومعنوية، وهي أعظم وأكبر من الجانب المادي بمراتب، لأنّ بقاءه في عالم الآخرة بالجنبة المعنوية عندما يتجرد من المادة، ويمكن لنا أن نشبه جسد الإنسان بالسيارة التي يركبها ليصل بها إلى مقصده ثم يدعها، وجسده كذلك، يستفيد الإنسان منه في نشأته المادية ثم يغادره وتبقى روحه التي اكتملت معنوياً بالعبادة.

ثالثاً الوصول إلى اليقين بحقائق عالم الوجود.

وإذا كان الإنسان يكتمل ويصل إلى أعلى مرتبة وهي الإدراك التام واليقين المطلق بحقائق عالم الوجود، باستناده إلى الحق تعالى وعبادته، قال سبحانه: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ۝٩٩﴾(الحجر:٩٩)، فإنّ للعبادة قسمان:

الأول: أن تكون على وفق الأصول فتوجب النمو المطرد.

الثاني: أن تكون خارجة عن الأصول العبادية الموصلة للإنسان إلى كماله.

وذلك أنّ الإنسان ليس من تلقاء نفسه يختار ما يريده من أنماط العبادات التي شرعت من قبل الله تعالى، لأنّ الله تعالى شرع لنا أنواعًا من العبادات كالصلاة والصوم والحج والجهاد في سبيله، والخمس وهلم جرا، وكل مفردة منها جاءت بها الشرائع السماوية من أجل الوصول إلى الكمال، فالصوم له قدرة على إيصال الإنسان إلى مراتب الاستقامة التي تؤدي به إلى السعادة في الدارين، وكذلك بقية العبادات، أما ما يشرعه الإنسان لنفسه من العبادات كأن يجلس على شجرة ليتقرب بجلوسه إلى الله تعالى، مع أنه تعالى لم يشرع ذلك، وكأن يقرأ دعاءً من عنده وينسبه إلى الشارع بخلاف ما لو دعا بدعاء عام فقال: "ربي أعطني وارزقني، وآتني من فضلك" فإنّ مثل ذلك لا إشكال فيه، قال تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي

سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ (غافر:٦٠)، أي "ادعوني" بأي نمط من الدعاء، فإنّ الدعاء عبادة، والصلاة والصوم والحج مفردات عبادية تمثل زادًا معنويًا يكمل به الإنسان إذا تغذى عليه، فينمو في جنبته اللامادية ويكتمل نموه حتى يصل إلى مراتب من القرب الإلهي، المشار إليها في أحاديث متفق عليها كقول الله تعالى في الحديث القدسي: (لا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فأكون أنا سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ولسانه الذي ينطق به ، وقلبه الذي يعقل به ، فإذا دعاني أجبته ، وإذا سألني أعطيته)[١٢] أي أنّ الإنسان يصل إلى درجات من الكمال المعنوي يجسد فيها إرادة الحق تعالى في مقام خلافة الله، قال تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾(الأنفال:١٧) فيصبح فعله هو ما يريده الله تعالى، وهذه درجة عالية من العبادة.

أما لو كانت العبادة بزيادة أو نقصان فإنها وإنْ ترتب عليها بعض الفوائد لكنها غير موصلة إلى الكمال المعنوي المراد لله تعالى.

معنى ﴿إياك نعبد﴾:

إنّ أنماط العبادات يمكن أن تفهم من قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي أنّ العبادة المقصودة هي التي شُرعت لتوصلنا إلى مقام اليقين والكمال، أما العبادات الأخرى فإنها لم ينزل الله تعالى بها من سلطان لعدم الدليل من الناحية الشرعية عليها، نعم؛ قد يستفيد منها الإنسان، لكنها لا توصله إلى ما يريده الله تعالى لأنّه تعالى يريد أن يُعبد من حيث أمر لا من حيث ما يريده الإنسان من تلقاء نفسه، والعبادات هي طرق للسلوك إلى الله تعالى، فهي عبادات سلوكية، ولهذا فإنّ الأخلاق وصلة الرحم وبر الوالدين عبادات مشروعة من قبل الله تعالى

---

١٢ ميزان الحكمة - محمد الريشهري - ج ٣ - ص ٢٥٤٠

كالصلاة والصوم والحج والزكاة والجهاد في سبيل الله، وهي مفردات دلت عليها الآيات والروايات، وهناك أذكار لم ترد من قبل الشارع بخصوصها أو أنها تندرج تحت عنوانٍ مطلق كالذكر أو الدعاء، فالذكر بنحو مطلق يقرب من الله تعالى، قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾(البقرة:١٥٢)، وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ۝٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾(الأحزاب:٤١–٤٢).

إذن هناك جملة من المفردات المشروعة مرادة للإنسان، وعندما يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ أي أننا نصرف جميع وجملة أنماط العبادات إليك لنتقرب بها لك، وبذلك يكتمل الوجود المعنوي للإنسان، إذْ من المحال أن يكتمل دون أن يعبد الله تعالى، لأنه سيبقى كالبهيمة، قال إمامنا أمير المؤمنين (ع): (فما خلقت ليشغلني أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة همها علفها ، أو المرسلة شغلها تقممها، تكترش من أعلافها وتلهو عما يراد بها)[١٣]، بخلاف من توجه وأدرك أنّ العبادة هي الزاد المعنوي وسلك الطريق وجاء بما يريده الشارع تعالى، فإنه سيكتمل وجوده المعنوي بنحو تدريجي ويصبح له امتداد في روحه، وسينطبق عليه حينئذ الحديث القدسي المتقدم.

حقائق هامة لابد من الالتفات إليها في العبادة

قوله تعالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ فيه حيثيات ينبغي الالتفات إليها:

الأولى ضمير الجمع في قوله تعالى ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾

لقد أوضحنا أنّ التعبد هو إظهار الخضوع والخشوع والتذلل إلى الله تعالى، وقول العبد: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ قد يشم منه المنافاة لذلك لأنه تعبير بضمير

---

١٣ نهج البلاغة – خطب الإمام علي (ع) – ج ٣ – ص ٧٢

الجمع والتذلل والخشوع يتناسبان مع الخطاب لله تعالى بإظهار الفقر والفاقة والاحتياج، ولكن فذلكة ذلك تظهر من خلال إدراك أنّ الإنسان في بعض الأحايين يظهر فقره باندكاكه مع غيره، أي كأنه لا يرى لوجوده وحده وجوداً وإنما يقول: إنّ مقامك يا إله العالمين هو مقام العزة والعظمة وكل العباد يتوجهون إليك خاشعين متذللين، إذن الحيثية التي على أساسها عُبر بـ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هي إظهار الذل والخشوع والخضوع لله تعالى ضمن المجموع باعتبار أنّ العابد لا يرى لنفسه في عباداته وجوداً بل يندك ضمن وجود العابدين لله تعالى.

الثانية حقيقة العبودية.

شرحنا معنى العبادة وقلنا: إنها إظهار التذلل والخضوع والخشوع من العابد للمعبود الذي يستحق العبودية وهو المتصف بصفات الجمال والكمال والذي له الخلق والأمر كما عبّر القرآن الكريم وهو الرحمن الرحيم، وتظهر العبودية لله تعالى من خلال ملاحظة أمور ثلاثة:

الأول: أن لا يرى لنفسه ملكاً في قبال الله تعالى

بُيّنت العبودية ببيانات متعددة: ومن أروع ما جاء في تبيان حقيقتها: أن لا يرى العابد لنفسه ملكاً لأنّ الملكية لله تعالى، وحينئذ يهون عليه التصرف في أي مالٍ بل يرى أنّ وجوده ملك لله تعالى لأنّه لا يرى إلاّ مالكية الحق المطلقة فيهون عليه التصرف في ماله ونفسه وينصاع انصياعاً في إطاعته المطلقة لله تعالى، إذن معنى ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي لا نرى لأنفسنا ملكاً إلاّ لك.

الثاني: إظهار الطاعة المطلقة

أن يظهر العبد الطاعة المطلقة لأوامر الحق تعالى والتي ألمحنا إليها شارحين لها فيما تقدم، فيكون قوله: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يتضمن إظهار العبودية

بمعنى أنه لا يطبع نفسه في عالم الخارج إلاّ بطابع العبودية لله تعالى، وقد عبّر القرآن الكريم عن ذلك بالصبغة، قال تعالى: ﴿ صِبۡغَةَ ٱللَّهِ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبۡغَةٗۖ وَنَحۡنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ﴾(البقرة:١٣٨) أي أنه يضع على نفسه بصمة العبودية، إننا نرى بعض الناس كذلك، فإذا سُئِل عنه؟ قيل: إنه عابد، وعندما تريد أن تتعرف على معنى عابد ستصل إلى أنه متقيد بأوامر الشارع ومنتهٍ عن نواهيه، وشاغل لنفسه بعبوديته لله تعالى، فظهر ذلك عليه.

الثالث: أن لا يرى لنفسه وجودًا

وهو أمر جد هام ونركز عليه لأهميته، ذلك أنّ الإنسان إذا لم ينظر إلى وجوده أي لا يرى لنفسه وجودًا بل يرى أنّ الوجود الحق لله تعالى، سيصل إلى إدراك المعنى الدقيق للعبودية، وكي يتضح ذلك سنبين معنيين اعتباريين للعبودية:

الأول: يتعلق بنظام الرق، فإنّ العبد الذي يشترى يتصرف فيه مولاه كيف يشاء فيضع له اسمًا غير الاسم الذي سمّاه به مولاه السابق، فيتغير اسمه وكذلك ينصاع لأوامر مولاه اللاحق، فلا يأكل ولا يشرب إلاّ ما قدّمه له مولاه رغم أنّ هذه العبودية اعتبارية لكنها تجرده عن وجود الأنا المستقلة فيندك في وجود سيده، وكأنّه لا وجود له، وقد عبّر القرآن الكريم عنه بأنه لا يقدر على شيء، قال تعالى: {ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} (النحل:٧٥)، أي أنه ليس له شخصية مستقلة.

الثاني: صاحب النعمة على المنعم عليه، فإنه يلهج بالشكر والثناء على من أعطاه كالولد بالنسبة لأبيه والصديق لصديقه وبعض من أُحسن إليه للمحسن فيرى المنعم عليه أنه عبد للمحسن المنعم، وهذه أيضًا عبودية اعتبارية،

أما العبودية الحقيقية فإنّ العبد ينسلخ فيها عن حيثية تشكل وجوده في قبال وجود الحق لله تعالى، أي أنه لا وجود له، فضلاً عن أن يكون ناظرًا لنفسه فهو لا يطيع هواه ولا ينطلق من أمور لا ترضي الله تعالى لأنّه لا وجود له، وقد رتّب الإمام الصادق (ع) هذه الحيثيات على العبودية الحقة، فقال: ((العبودية جوهرة كنهها الربوبية ، فما فقد في العبودية وجد في الربوبية ، وما خفي عن الربوبية أصيب في العبودية))[١٤]، أي من أراد أن يصل إلى مغزى العبودية في حقيقتها فقد وصل إلى الحق المطلق لأنّ العابد لا وجود له، بل اندك في وجود مبدئه بخلاف العبد الاعتباري فإنّ له وجود في قبال أوامر مولاه، ورغم ذلك فهو يطيعه في أكله وشربه وملبسه لكونه عبدًا اعتباريًّا، ومولوية مولاه كذلك، فما بالك بالعبودية الحقة التي إذا أدركها العابد ووصل إلى مغزاها علم بالمالكية والقيّومية التي شرحناهما فيما تقدم، وأدرك حقيقة فقره ومعنى ارتباطه بالله تعالى.

إذن قول العابد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يوصل إلى هذا المعنى الذي أبانه الإمام الصادق (ع) ومعنى قوله (ع): (جوهرة كنهها الربوبية) أنه أصبح مظهرًا من مظاهر الحق في فعله وتجلى له الله تعالى في ذاته فأصبح يمثل خلافة الله تعالى في الخلق.

ولذلك مظهران: تكويني وتشريعي، التشريعي بكونه ينطلق على وفق القانون الإلهي فلا يفعل إلاّ ما يريده الله تعالى، أما التكويني فهو كمال وجودي تقدمت الإشارة إليه في الحديث القدسي (فأكون أنا سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ولسانه الذي ينطق به ، وقلبه الذي يعقل به ، فإذا دعاني

---

١٤ ميزان الحكمة - محمد الريشهري - ج ٣ - ص ١٧٩٨

أجبته ، وإذا سألني أعطيته)[15]، وذلك ما يجسده العباد الصالحون الذين وصلوا إلى تلكم الدرجات.

وخلاصة ما تقدم في الأمور الثلاثة أنّ:

الأول: يتركز حول كيف يظهر العبد ذليلاً عند قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي أنني لا وجود لي إلاّ في ضمن العابدين لك السائرين على نهجك، وكأني وحدي غير قادر لأظهر العبودية فأتوسل بأن أكون ضمن العباد الذين وصلوا إلى تلك المقامات السامية وهم المعبر عنهم في القرآن بقوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾(الأنبياء:٧٣)، -الأنبياء والرسل والأئمة (ع)- الذين وصلوا إلى المظاهر الكاملة، إذن نوع التذلل والاندراج ضمن طبقة من وصلوا إلى الرّقِّ في عبوديتهم يتوقف على كون العابد معهم.

الثاني: أن لا يرى العابد لنفسه ملكًا فيما خوّله الله تعالى، لا في وجوده ولا في ماله، فيشتغل بعبوديته لله تعالى ولا يشتغل بغيرها في قول أو فعل، فيدرك فقره وحاجته وتعلقه بالله تعالى، وذلك هو الفقر المطلق لله تعالى حيث يعرف معنى كون العبودية جوهرة كنهها الربوبية.

مراتب العبودية:

للعبودية مراتب أشارت إليها الروايات الواردة في هذا الشأن:

الأولى: أن يعبد المؤمن الله تعالى طمعاً في ثوابه.

والثانية: خوفاً من عقابه.

والثالثة: فسرت بتفسيرين:

---

١٥ - ميزان الحكمة - محمد الريشهري - ج ٣ - ص ٢٥٤٠

الأول: أن تكون شكرًا بمعنى أنّ الله تعالى أنعم على العبد وأعطاه فيعبده شكرًا لعطاياه ومننه؟

الثاني: لعله الأدق والأقرب، وقد ورد عن علي (ع)، ومعناه مرتبة كمالية في معرفة الله تعالى يُرى بها أنه أهل أن يُعبد فيعبده لكونه أهلًا للعبادة، قال (ع): (ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكن وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك).

إنّ مرتبة الشكر مرتبة جميلة وعظمية ويمكن أن تلتقي مع مرتبة المعرفة لكنّ مرتبة المعرفة هي الأعظم وقد جاء عن إمامنا الصادق (ع) تفسير هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾(الذاريات:٥٦) قال (ع): (أي ليعرفون)[١٦] لأنّ غاية العبادة الوصول إلى المعرفة، ومن عبد الله تعالى فقد وصل إلى كمال العبودية، وقوله تعالى: {إياك نعبد} يُعرف منه المراتب الثلاث، وقد فسرت الروايات مرتبة الخوف بأنها للعبيد، ومرتبة الطمع في الجنة بأنها مرتبة الأجراء، أي من يتحرك على أساس وجود العوض والمنفعة والمرتبة الأعلى هي أن لا يرى العابد أهلاً للعبادة إلاّ الله تعالى، فيتوجه إليه عابداً له.

إنّ من أراد أن يصل إلى المرتبة الثالثة وهي مرتبة العرفان لله تعالى قد يحتاج أن يسلك المرتبة الأولى فيخاف من النار والعقاب الإلهي ثم يرتقي فيتوق إلى جنانه ومنحه وعطاياه ومن ثم يرتقي ويتجرد عن ذاته فيرى أنّ الله تعالى هو أهل لِأَن يُعبد فيعبده تعالى لأنه المستحق لذلك.

---

١٦ - شرح أصول الكافي للمازندراني ج٤ هامش ص٢١١.

الفرق بين المراتب الثلاثة

إذا نظرنا إلى المراتب الثلاث عرفنا أنّ الثالثة هي مرتبة الأحرار، والحر هو الذي لا قيود تقيده، فلا شيء يثقله ويشده إليه، وسيتضح ذلك من خلال فرض وهو أنه لو كان لا يجازى بجنة ولا يعاقب بنار، فإنه سيعبد الحق تعالى ويتوجه إليه بخلاف أصحاب المرتبتين الأوليين، فإنهم قد لا يعبدون الحق تعالى لأنّ الدافعية التي تدعوهم لعبادة الحق تعالى هي الجنة والنار، أما الأحرار وهم العرفاء فإنّ ما يدفعهم هو المعرفة لله تعالى بغض النظر عن وجود الجنة والنار، وذلك هو الفارق، أي أنهم يدركون الحق فيتبعونه، بغض النظر عن وجود مصلحة في اتباع أو ضرر في ترك عبادته، وننوّه هنا أنّ من وصل إلى ذلك المقام فقد حصل على المرتبتين الأوليين لأنّ من عبد الله تعالى عارفًا به وكان حرًّا غير مقيد بقيود تشده إليها فقد أمن من العذاب وحصل على الثواب، وبعض العلماء عنده التفاتة قال فيها: "إنّ المرتبة الثالثة لا تحصل إلاّ بعد المرتبتين الأوليين" أي أنّ من يريد أن يصل إلى المرتبة الثالثة لابد أن يسلك أحد الطريقين ليصل إلى المرتبة الثالثة، وقد يحتاج إلى سلوك كلا الطريقين كي يصل إلى الثالثة.

إنّ الناس يختلفون، وحتى الأنبياء كذلك، أي أنّ التقسيم الثلاثي يشمل الأنبياء أيضًا ذلك أنّ بعضهم يستولي عليه الخوف وبعضهم يستولي عليه الرجاء والطمع بالحصول على الثواب، رغم أنهم يعرفون الله تعالى، وهم أحرار في سيرهم وسلوكهم، ولذلك قيل: إنّ المراتب الثلاث للعبادة متأتية أي أنّ من عنده المرتبة الثالثة فعنده المرتبتان الأوليان، وليس بالضرورة من عنده إحدى المرتبتين الأوليين أن يصل إلى المرتبة الثالثة لأنّ ذلك قد يكون حدود إدراكاته التي ينطلق منها.

الإشارة في كاف ﴿إياك﴾

هناك أمران يرتبطان بما تقدم:

الأول: أنّ العابد لا يحيط بمعبوده عند قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ والخطاب موجه إلى الله تعالى، والكاف هاهنا في ﴿إِيَّاكَ﴾ توجه الخطاب إلى الله تعالى، وعندما توجه الخطاب لأحد فأنت تشير إليه، وتعينه والتعيين معناه التحديد والله تعالى لا حدّ له، وكي نتخلص من هذا الإشكال في قولنا "إياك نعبد" ولا يكون العابد محدّدًا للمعبود ولا مشيرًا إليه، فإنّ المعنى هنا هو إشارة معرفية بمعنى أنّ المخاطب هو ذلك المعروف بفؤاد العابد، لأنّ الحق تعالى يُعرف بأنماط وضروب المعرفة المختلفة التي أشرنا إلى بعضها، ومن أنحائها معرفة أنّ الخلق يستند في وجوده إلى الحق تعالى الذي أوجده، وعندما يخاطب الحق بـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ فإنّ المقصود به خالق الخلق دون تحديد، فلا يلزم من كاف الخطاب الإشارة والتحديد للمخاطب دائماً، بل الإشارة إلى ما نعرف به الحق تعالى، والمعنى نعبدك يا خالق الخلق ويا باسط الرزق ويا موجد عالم الإمكان، وهذه المعرفة سير من الخلق إلى الحق، ودليل إنّي، وإذا عرف أحد الله تعالى بمعرفة الصديقين والأنبياء((بك عرفتك وأنت دللتني عليه)) فيخاطب ذلك الوجود المطلق الذي لا حدّ له والذي عرفه بذاته، وحينئذ لا تحديد، وعليه ليس كما تصور بعض: بأنّ الخطاب لله تعالى يلزم منه التحديد، فإنّ ذلك إذا كان المخاطب ممكنًا، أمّا إذا لم يكن المخاطب محدودًا بل كان لا حدّ له فلا تكون الإشارة محدّدة.

وقد تلخص من ذلك أمران:

الأول: أنّ مراتب العبادة يندرج بعضها في بعضها الآخر على بعض الآراء.

الثاني: أنّ كاف الخطاب رغم كونها تشير إلى الله تعالى لكنها تشير إليه بنحو معرفة العابد إما ببرهان الإن وهو السير من المخلوق إلى الحق تعالى أو ببرهان اللِّم، الذي يسميه العلماء معرف الله بالله تعالى وهي معرفة الصديقين، وعلى كلا النمطين والنحوين لا يلزم التحديد والتعيين لأنهما يختصان بالممكن، أما الله تعالى فلا حدّ له، وقد جاء في الروايات أنه تعالى: (أين الأين بلا أين وكيف الكيف بلا كيف فلا يعرف بالكيفوفية ولا بأينونية ولا يدرك بحاسة ولا يقاس بشئ)[17]، فإنّ كل ذلك لا يطلق على الحق تعالى وإنما يطلق على خلقه لوجود حدود وتعينات للخلق دون الحق تعالى.

أسرار تقديم الضمير في ﴿إياك نعبد﴾

من الأمور المهمة هنا في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تقديم الضمير لأمور:

الأول: إظهار الخصوصية للعابدين

إبانة وخصوصية للعابدين أولاً كما يذكر بعض المفسرين أنّ الله تعالى هو الحق المطلق فلذلك تقديم الضمير ﴿إِيَّاكَ﴾ ضمير المخاطب على نعبد باعتبار نعبد تتعلق بالمخلوق ومن الواضح تقدم الحق والخالق على المخلوق.

---

١٧ - الكافي - الشيخ الكليني - ج ١ - ص ٧٨.

الثاني: حضور المعبود

غير أنّ هناك حيثية أخرى ينبغي أن يلتفت إليها وهي مسألة الشهود والحضور لله تعالى، وكأنّ العابد يبدأ العبادة وهو عارف بالحق واصل إليه لكونه لا يعبد من لا يعرف وإنما يعبد المعروف لديه ولذلك قدّم الضمير هاهنا أي لحيثية الحضور التي أشار إليها أمير المؤمنين (ع) في قوله: (ما رأيت شيئاً وإلاّ ورأيت الله قبله)[18] وكأنّ العابد يلتفت أنّ المعبود حاضر لديه فيتوجه بقلبه عابدًا إياه، وعليه فإنّ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يستلزم مرتبة الحضور لدى العابد.

الثالث: الوصول إلى اليقين بالحق تعالى

العبادة طريق للوصول إلى الله تعالى واليقين بوجوده، ولعل قوله تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾(الحجر:٩٩) إبانة إلى هذا المطلب أي أنّ العبادة توصل العابد تدريجيًّا إلى مرتبة اليقين بمعبوده، ولذلك يرى العابد أنّ الحق حاضر لديه ظاهر عنده، متجلٍ في كل التفاتاته، وهذا المعنى الذي يوصل العابد إلى اليقين وحضور الحق تعالى لديه يشير إليه تقديم الضمير ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فيستلزم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ اليقين بوجود الحق والمعرفة التامة له، لكون العبادة تجلّي الحق لدى العابد، وفي دعاء عرفة: (أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدل عليك ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك، عميت عين لا تراك، ولا تزال عليها رقيبًا، وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيبًا)[19]،

---

١٨ - شرح أصول الكافي للمازندراني ج٣ ص٨٣.

١٩ - بحار الأنوار للمجلسي ج٦٤ ص١٤٢.

ويستلزم حينئذ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ الإشارة بل لعلها البيان بأنّ العبادة توصل إلى الله تعالى بل إلى اليقين بوجوده، نعم؛ اليقين بوجود الله تعالى يتأتى عبر دلائل متعددة منها: التأمل والتفكر، قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾(فصلت:٥٣) أي حتى يتبين لهم الوجود المطلق لله تعالى.

العبادة أفضل طرق استقرار مرتبة اليقين

يصل الإنسان عبر التأمل في عالم الآفاق إلى الله تعالى وإدراك الحقانية المطلقة لوجوده، وكذلك بالتأمل في عالم نفسه والتفكير يصل إلى إدراك الحق تعالى، وعليه فإنّ هناك طرق:

الأول: التأمل، عبر البرهان والاستدلال والتفكير.

الثاني: العبادة.

الثالث: من خلالهما معًا.

بالطبع؛ ينبغي أن يلتفت أنّ طريق التفكير والاستدلال على وجود الحق، رغم كونه يوصل الإنسان إلى مرتبة اليقين لكنه لا يستقر لديه ذلك، لأنّ البرهان إذا لم يصل إلى أعلى مراتبه سيشوبه غموض، وبالتالي لن يجعل المبرهن عليه مستقرًا دائمًا في أفق النفس، ولهذا فإنّ أقوى الطرق وأضمنها لاستقرار مرتبة اليقين بمعرفة الله تعالى هو بالمزج بين البرهان والعبادة، ليكون اليقين راسخًا ومستقرًا في النفس، وهو الطريق الذي أرشد إليه الأنبياء، قال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ﴾(الأنبياء:٧٣)، وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾(الحجر:٩٩)، وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾(الأنعام:٧٥)، إذن أرشد الأنبياء الناس إلى الجمع بين الأمرين ليكون الحق تعالى حاضرًا وناظرًا لديهم، وذلك أنّ الاستدلال بالبرهان قد لا

يكون تامًّا كما أشرنا فيؤتى بالعبادة ليترسخ وجود الحق ويظهر ذلك لمن يدرك معنى العبادة، بأنها خضوع تام لله تعالى، وخشوع مطلق وانمحاء إنية، حيث لا يرى العابد لنفسه وجودًا.

إنّ ذلك يؤدي إلى إدراك وجود الحق واليقين به لكون الإنسان لا يرى لنفسه وجودًا، أمّا من يرى لنفسه وجودًا فمن الممكن يصبح في تيه فلا تتثبت المعرفة في قلبه، ولعلّ في "إياك نعبد" إشارة واضحة لمن تأمل حقيقة العبادة.

العلاقة بين الاستعانة والعبادة

عندما يقول المؤمن: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ عليه أن يفهم شيئًا فيأتي بقوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ليتجرد عن قوته وحوله في كل أموره خصوصًا في عبادته.

نفي الاستقلالية الذاتية في العبادة

لأنه أظهر نوعًا من الاستقلال لشخصيته بقوله: "إياك نعبد" ولا يزول ذلك الاستقلال حتى يردفه بـ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لكون الاستعانة بالله تعالى تثبت معنى عبودية العابد لله تعالى فيصبح المعنى: أعبدك بك، وبالقدرة التي منحتني إياها، وأنّ عبادتي ليست جائية من استقلال ذاتي، بل هي من القدرة التي منحتني إياها، ويتضح هذا المعنى لمن يفقه معنى الأمر بين الأمرين (لا جبر ولا تفويض، ولكن أمر بين أمرين)[٢٠].

---

٢٠ - الكافي - الشيخ الكليني - ج ١ - ص ١٦.

الله مفيض للقدرة على عبادته

أي أنّ الله تعالى لم يفوض للعبد القدرة بحيث يكون مستقلاً في التصرف بها، وعندما نقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ قد يتوهم أحد أنّ العبادة باستقلال من العبد، إلاّ أنّ الله تعالى لم يجعل لعبده ذلك، بل زمام الأمر وجميع ما لدى العبد بيده تعالى، فهو يقبض ويبسط، ويعطي ويمنع، وإذا التفت العبد إلى هذا المعنى أدرك حقيقة أعبدك بك أي بفضلك وقدرتك التي منحتني إياها، فإرداف ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يزيل المعنى الذي يظهر بدوًا من ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ليصبح العبد عاملاً لله تعالى بقدرته سبحانه.

العبادة لا تحصل إلا بالاستعانة بالله

قد أشرنا إلى معنى الحوقلة، وأنّ الإنسان عندما يحوقل ويقول: "لا حول ولا قوة إلاّ بالله" يتجرد عن القدرة الذاتية، ويخبر أنه لا قوة ولا قدرة له إلاّ بالله تعالى، ومعنى العبادة هاهنا كذلك، وبه يصبح المؤمن عالـمًا بظهور الحق، وأنّ من أظهر الحق هو الحق تعالى، وذلك معنى (بك عرفتك) أي بقدرتك وبوجودك عرفتك، (وأنت دللتني عليك، ولولا أنت لم أدرِ ما أنت) إذن حيثية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ هي إبانة لمعانٍ متعددة: أهمها الظهور المطلق للحق تعالى للعابد، وإيصاله إلى مرتبة اليقين، واستقرار تلك المرتبة في ذاته، وعدم كون العبادة باستقلال منه وإنما هي بفيض وعطاء واستعانة من الحق تعالى.

الاستقلال المطلق يتعذر على المخلوق

إنّ الله تعالى لو لم يعطِ العبد القدرة لما استطاع أن يعبده تعالى، ولذلك تمر على الإنسان أوقات يفقد فيها قدرته على عبادة الله تعالى، قال تعالى: ﴿يَوْمَ

﴿يُكۡشَفُ عَن سَاقٖ وَيُدۡعَوۡنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾(القلم:٤٢)، وعليه فإنّ معنى الأمر بين الأمرين هو أنّ قولنا "وإياك نستعين" أي أنّ القدرة منك ونتصرف فيها باختيارنا دون استقلال ولك الأمر في البدء والختام، حيث أنك المعطي للمدد، وإنْ شئت منعته، وبذلك تتضح نظرية (لا جبر) لأنّ الله تعالى لم يجبر أحدًا وإنما منحه القدرة وأعطاه الاختيار بالتصرف فيها (ولا تفويض) لأنه لم يستقل العبد بها، (بل أمر بين أمرين)، والمسألة دقيقة وهي وسط بين إعطاء العبد للقدرة وبين التفويض إليه في صرفها، ولهذا لا تفويض أي ليس هناك استقلال في صرف القدرة دون رجوع ذلك إلى الله تعالى، ولا قسر ولا إلجاء على الفعل بل هناك شيء وسط، وبذلك يتبين لنا أنّ المعبود هو الظاهر الحق، ويظهر الوجه في تقديم ﴿ إِيَّاكَ ﴾ لكونه تعالى واجب الوجود، ونحن في عالم الإمكان، وهو تعالى مقدم على الممكن لتقدم الخالق على المخلوق.

انحصار الاستعانة بالله تعالى

معنى حصر العبادة بالله تعالى أنه لا معبود بحق إلاّ هو، أمّا غيره حتى وإنْ عُبد فعبادته باطلة لأنها لا تقوم على أسس ودعائم تقتضي حقانية العبودية بخلاف عبادة الحق تعالى فهي قائمة على دعائم بينت في قوله تعالى: ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ وكذلك في البسملة، أما غيره فلا يملك ملكية مطلقة، ولا قيومية له وليس له الحمد، ولا يتصف بالرحمانية الرحيمية لله تعالى، ولا بالصفات الكمالية الجمالية التي للحق تعالى، من هنا يتضح أيضًا معنى الاستعانة وأنها به لا بغيره، ويتضح أيضًا السر في حصر الاستعانة به مع أنّ الظاهر أنّ البشر يستعينون بغير الله تعالى كأمر الإنسان لأخيه بجلب شيء، قال تعالى: ﴿ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ ﴾(الزخرف:٣٢) أي أنّ الله تعالى سخّر

بعض الناس لبعضهم الآخر ليستعين في الوصول إلى مآربه وتحقيق مقاصده، أمّا لماذا حُصرت الاستعانة به تعالى مع كوننا نستعين بغيره؟

مرجعية الاستعانة بالغير إلى الله

هذا مطلب جد هام، ويرجع إلى ما تقدم وهو أنّنا عندما نقول: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإنّ حقيقة الاستعانة ترجع إلى الله تعالى والقدرة لدى غيره منه تعالى، وحينئذ فإنّ وصولنا إلى مآربنا بالاستعانة بغيره مرجعه إليه تعالى، وإذا نظرنا إلى أنّ الله تعالى هو الذي أعطى الخلق القدرة عرفنا أنّ الاستعانة الحقيقية إنما تتأتى منه وحده دون ما سواه، وعندما نقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فمعنى ذلك أنّ الاستعانة بغيره وإنْ كان ظاهرها من غيره لكن واقعها منه، إذْ لا يملك أحدٌ شيئًا إلاّ به تعالى، فاستعانتنا بغيره راجعة إليه تعالى في المآل، والاستعانة بالخلق راجعة إلى الحق إذْ لا وجود لقدرة باستقلال، وقدرة الخلق من الحق تعالى، ومعنى أنّ الاستعانة بغيره ترجع إليه، كحمد غيره يرجع إليه، لأنّه ليس لدى غيره صفات جمال وكمال ذاتية، وما عند غيره هو منه تعالى، ويظهر هذا المعنى من الحوقلة في قولنا: "لا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم".

التجرد من الأنا والاستقلالية

للاستعانة في العبودية تأثير جد هام أي أنّ إدراك العابد معنى استعانته بالله تعالى من غايات معرفة الله تعالى، لأنه إذا التفت إلى معنى الاستعانة بالله تعالى جرّد نفسه من الحول والقوة وعلم أنّ ما لديه من توفيق في العبادة مرجعه إلى الله تعالى، وبذلك يظهر أنّ في قولنا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ حيثية

أخلاقية عرفانية دقيقة هي أنّ العابد في مقام عبوديته عندما يعي أنّ الاستعانة جائية من الله تعالى يتعرف أنّ المدد والتوفيق للعبادة هو من عنده تعالى، وبذلك تكون عبادته مهما بلغت من درجات لا توجب له الرياء ولا يصل بها إلى العجب لأنّ العجب والرياء والكبرياء أمور تأتي للإنسان إذا نظر إلى ذاته، ورأى أنه كمل ووصل إلى مراتب عالية لم يصل إليها غيره، فيستطيل مختالاً على غيره، أما إذا أدرك أنّ عبوديته لله تعالى جاءته من الله تعالى ولولا أنّ الله تعالى أمده بالقوة لما عبده تعالى، فقد جرّد نفسه في أثناء عبوديته من حوله وقوته، والتجأ إلى الله تعالى، أي أنه علم بأنه لولا أنّ الله تعالى منحه القدرة والتوفيق للطاعة لما استطاع العبادة، وهذا مقام أخلاقي عرفاني عالي، وفائدته التجرد من الكبرياء وزوال العجب والتخلي عن الرياء فتصبح عبادته مؤثرة لكونها خالصة لله تعالى، ولكونها عن معرفة.

رابعاً: لا فعل في عالم الإمكان إلاّ ويرجع إليه تعالى

هناك مطلب توحيدي في ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يظهر من خلال ما تقدم في إيضاح حقيقة التوحيد في العبادة، فقد بيّنا هناك بعض معاني التوحيد، كتوحيد الذات، وتوحيد الصفات وتوحيد العبادة، وهناك أيضاً توحيد في الأفعال، فعند قول العابد ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يظهر معنى أنّ جميع الأفعال التي تحدث في عوالم الإمكان راجعة إلى الحق تعالى، فأصبحت الاستعانة دالة على توحيد الأفعال لأنّه لا فعل إلاّ ويرجع إلى قدرة الحق تعالى فهو الفاعل، ويتضح من ذلك أنّ جميع أنحاء التوحيد جمعتها سورة الفاتحة، فقد دللت على توحيد الذات وتوحيد العبادة وتوحيد الصفات لكون صفات الكمال ترجع إلى الذات المقدسة، ودللت أيضاً على توحيد الأفعال لأنّ جميع الأفعال إنما تتأتى بقدرة القادر المتعال ولولا أنّ الله تعالى منح الفاعل القدرة لما استطاع الفاعل أن يحدث فعله، إذن الفعل الذي يتأتى من الفاعل مرجعه إلى الله تعالى، وذلك يرجع إلى الاستعانة بالله تعالى، فأصبح ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يدل على توحيد العبادة، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يدل على توحيد الأفعال بمعنى لا فعل في عالم الإمكان إلاّ ويرجع إلى الواحد القهار.

﴿ اهدنا الصراط المستقيم ﴾

الهداية وأقسامها:

الهداية في اللغة هي الرشاد والدلالة، ومعناها اللغوي أرشدنا أو دلنا على الصراط المستقيم، وتنقسم إلى قسمين: هداية تكوينية وأخرى تشريعية.

الأولى: الهداية التكوينية

التكوينية يشير إليها قوله تعالى: ﴿ أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾(طه:٥٠) أي أنّ الله تعالى أوجد عالم الممكنات وجعل كل مفردة من مفرداته على نسق محدد في عالم التكوين تمثل حكمة الوصول إلى مقصده، وهذه هي الهداية التكوينية.

الثانية: الهداية التشريعية

أما التشريعية فهي التي يتكفل بها الأنبياء والرسل، فهم (ع) يرشدون ويدلون الناس على النظم والقوانين والتكاليف والتشريعات التي توصلهم إلى سعادتهم وتحقق لهم كمالهم، وتلك هي الهداية التشريعية.

العلاقة بين الهداية التكوينية والتشريعية

لا يستطيع الإنسان أن يصل إلى رفعة الدرجات بالهداية التكوينية وحدها رغم أنّ الله تعالى أعطاه العقل وأفاض عليه نعمًا متعددة كالجوارح والجوانح لكن الجوارح والعقل لا يستطيعان إيصال الإنسان إلى كماله، ذلك أنّه لا يهتدي بعقله وجوارحه فقط، بل يحتاج إلى تتميم للهداية، يتأتى ذلك التتميم عبر الرسل والأنبياء فهم الذين يرشدون الناس إلى ما يوصلهم إلى كمالهم.

معاني الهداية

وتأتي الهداية بمعنيين:

الأول: الدلالة على الطريق أي إراءة الطريق، تقول هديته بمعنى أريته الطريق وأرشدته إليه.

الثاني: الإيصال إلى المطلوب.

وهي بالمعنى الثاني تشمل المعنى الأول إراءة الطريق والأخذ بيد المهتدي إلى المطلوب، أي أنّ الهداية بالمعنى الثاني تتضمن المعنى الأول وزيادة، وقد أشارت الآيات القرآنية إلى المعنيين، قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾(فصلت:١٧)، أي أريناهم جادة الصواب والطريق إلى المطلوب وعليه فإنّ قوم ثمود أبان لهم الله تعالى طريق الخير وطريق الشر، قال تعالى: ﴿ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾(البلد:١٠)، بمعنى أريناه طريق الخير وطريق الشر، وعلمناه أنّ طريق الخير يوصل إلى الخير، وطريق الشر يوصل إلى السوء، وإذا اتبع الطريق الموصل إلى الخير، وصل إليه وإن اتبع الطريق الموصل إلى السوء وصله، ولعل قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ﴾(فصلت:١٧)، بمعنى أوصلناهم لأنّ الله تعالى يذمهم لكونهم بعد أن أوصلهم الله تعالى إلى الرشد وحقق لهم ما يصبون إليه رجعوا على أعقابهم عن الرشد والهدى الذي تحقق لهم، فتكون الهداية هنا بمعنى الإيصال إلى المطلوب.

الرجوع القهقري عن هداية الله

هنا إشكال في تصور الرجوع القهقرى وترك المقام الحسن الذي وصل إليه المهتدي.

لكنّ الحال على ذلك لأنّ كثيراً من الناس يصل إلى درجات عالية ومقامات سنية ورتب جليلة لكنه يرجع القهقرى، ويدع ما وصل إليه.

وهناك أمثلة كثيرة في التأريخ، فقد نرى عابداً وصل إلى مقام عالٍ بعبادته ولكنه تركه مع علمه بتأثير العبادة في عالمي الدنيا والآخرة، وقد نرى عالماً وصل إلى رتبة في علمه، لكنه لم يهتدي إلى الحق ويأخذ بالرشد بل يختار ما هو ضده من السوء، قال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢا﴾(الجمعة:٥)، وقال في بلعم بن باعوره: ﴿ فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾(الأعراف:١٧٥) أي عن الآيات التي هداه الله تعالى إليها ﴿ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ﴾ (الأعراف:١٧٦)، إذن هناك أنماط من الهداية منها: إيصال المهتدي إلى الحق، لكنّ ذلك لا يشكل حصانة إذْ قد يرجع المهتدي عن الحق ويدعه بل قد يأخذ ما هو ضده، وحينئذ نفهم أنّ الهداية بالمعنيين هي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَهَدَيۡنَٰهُ ٱلنَّجۡدَيۡنِ﴾(البلد:١٠).

ماذا يريد المصلي بقوله: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾

إنّ المصلي في دعائه يريد أن يصل إلى أمور:

الأول: التعرف على الطريق الموصل إلى الحقائق

ليس بمعنى أوصلنا إلى الخير، لكونه قد اتضح لديه ذلك، فبدأ صلاته، لكنه يريد الوصول إلى الخير وليس رؤيته فقط.

وقيل: إنه يريد المعنيين بمعنى أرنا وأوصلنا فيكون معنى أرنا يشير إلى وجود مقامات كثيرة للإنسان ورتب متعددة، بعضها وصل إليه، وبعضها الآخر يحتاج أن يراه، فيطلب من الله تعالى أن يراه، ويطلب أيضاً أن يصل إليه، إذْ أنّ

هناك أمور كثيرة لا تتضح للإنسان بدوًا، وعليه فإنّ دعاء المصلي يتضمن كلا المعنيين.

الثاني: الوصول إلى نفس الحقائق

بعد أن يتعرف المصلي على الأمور التي وصل إليها سوف يهتدي إلى الحق، وذلك معنى ما جاء في بعض الروايات أنّ الإمام المعصوم ع هادي، بمعنى موصل، أي أنه لا يُرِي الطريق فقط وإنما يأخذ بيد المهتدي إلى الحق، ولهذا نرى بعض حواري عيسى ع وحواري الأنبياء ع لا يتعامل معهم عيسى ع كسائر الناس، لأنّ لديهم استعدادًا خاصًّا لا يستطيع بعض الناس أن يصل إليه.

والخلاصة: أنّ المعصوم (ع) يرى الذين لديهم قابلية وأهلية عالية فيرشدهم ويدلهم على الطريق، ويأخذ بأيديهم إليه، لرفع مستواهم، أي أنّ الهداية هنا تشمل التكوينية والتشريعية، لكنّ التكوينية خاصة بإيصال من لديه الأهلية إلى تلك الرتبة، والنبي ص كعيسى ع في إيصاله بعض الحواريين إلى تلك الرتب، وكموسى ع في إيصاله بعض حوارييه، هكذا حال الأنبياء والرسل والأئمة والعلماء يأخذون بأيدي بعض تلامذتهم من الذين لديهم الاستعداد والأهلية والقابلية، وتلك هداية تكوينية يصل فيها الهادي إلى الهيمنة التامة على المهتدي.

الصراط المستقيم

اتضح مما تقدم أنّ المراد من قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ﴾ كلا المعنيين أي أنّ الداعي لله تعالى المتوجه بقلبه يريد أن يتعرف على الأمور المجهولة فيرتقي علمياً، ويريد أيضاً أن يصل إلى ما يتعرف عليه، أما الصراط فهو في اللغة الطريق الواضح، والمستقيم هو الطريق المعتدل أي الذي لا اعوجاج فيه، والداعي

هاهنا يطلب من الله تعالى أن يهديه الصراط المستقيم أي الطريق الواضح، ولهذا الطريق علامات.

سمات الصراط المستقيم

أولاً الوضوح.

هنا بحث أخلاقي جد هام، وهو الوضوح في سلوك الطريق، إذْ أنّ أكثر الضلالات في التأريخ تأتي عبر عدم الوضوح في الرؤية فيسلك الإنسان طريقاً فيه إيهام، وبالتالي يستسهل ذلك في بداية سلوكه، ولكنه عندما يتوسط الطريق يعرف بأنه لن يستطيع الخروج منه، وهذا في الأمور الاجتماعية والعقدية غاية في الوضوح، ولهذا بيّن الله تعالى هذا الأمر الهام، ويريد للمؤمن أن يستقيم في حياته، ولا يتحقق ذلك إلاّ أن يسلك الطريق الواضح، أي أنّ الوضوح في الرؤية يؤدي إلى نتائج طيبة وحميدة توصل السائر إلى مقاصد جليلة، أما إذا سلك الإنسان طريقاً غير واضح فإنه في الأعم الأغلب تكون عاقبته وخيمة في الأمور الاجتماعية والاقتصادية، وكذلك في الأمور العقدية.

ثانيًا: سهولة الوصول إلى الحقيقة.

من أهمّ ميّزات الطريق الواضح اختزال المسافة، باعتبار أنّ المدة الزمنية التي يقضيها الإنسان في الحياة الدنيا قصيرة جدًّا ولا تسعفه أن يسلك طرقاً طويلة، لأنّ ذلك سيؤدّي إلى تصرّم عمره قبل أن يصل إلى مقاصده، أما إذا سلك الطرق المختزلة الواضحة فإنّ النتائج تكون ظاهرة لاستقامة الطريق وإيصاله إلى الغاية.

طريق الوصول عبر الصراط المستقيم

هناك سبل مختلفة يُسهم كلّ منها في إيصال الإنسان إلى مبتغاه، وقد يؤثر بعضها على بعضها الآخر، وحينئذ لا يستطيع السالك أن يصل إلى الغاية القصوى والمبتغى الأكمل، وهو القرب من الله تعالى والوصول إلى الدرجات العالية، وذلك هو الهدف الأكمل، قال تعالى: ﴿ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾(الانشقاق:٦)، ولذلك لابد أن يعرف المؤمن كيف يصل إلى القرب من الله تعالى؟ وقد أوضح بعض العلماء ذلك بقوله: إنّ عليه أن يسلك طريق الصواب وجادة الهداية، بأن يكون عادلاً، لأنّ الصراط المستقيم هو المعتدل، والعدالة معناها: انعدام الاعوجاج، فلا زيغ عنده، ومن هنا فإنّ الصراط المستقيم يشمل حيثيات متعددة، ويحتاج الإنسان أن يكون مستقيماً في سلوكه، وفي أخلاقه، وعقائده، أي أنّ هناك استقامات متعددة حتى يصل إلى الله تعالى، وإذا استقام في طريق واحد وانحرف في مجالات أخرى، فإنه في الأعم لا يصل إلى المطلوب لأنّ ذلك سيؤثر عليه وعلى مساراته الأخرى، فإنِ استقام في أخلاقه وانحرف عقديًّا فقد ابتعد عن الغاية، ولهذا اقترن الصراط بـ(أل)، وهي هنا إمّا للجنس أو للاستغراق، وكلا المعنيين يؤديان إلى مآل واحد، فإذا جعلناها للجنس أي اهدنا إلى صراط الاستقامة، وإذا جعلناها للاستغراق شملت كل مفردات الصراط المتعددة، والمآل واحد، فـ(أل) هنا يراد بها لفت نظر المصلي إلى أنّه لا يكفي للمرء أن يستقيم في بعض الأمور فحسب، بل لابد من الاستقامة بنحو عام لتؤدي بالإنسان إلى الفلاح والنجاح والفوز.

ذلك أنّ الإنسان قد يكون جيدًا في عباداته غير أنه سيء في تعامله رغم أنّ الدين المعاملة، إذن فإنّ الألف واللام هنا تفيد المصلي أخلاقيًّا فيصل بها إلى الاستقامة في عامّة أموره فلا ينحرف في عقائده، ويتزن في أخلاقه وسائر شؤونه،

وبذلك يكون عادلاً لأنّ معنى العدالة هو الإتيان بالواجبات وترك المحرمات، والاستقامة العقدية بأن تكون عقائده سليمة، وعلى هذا فإنّ أعظم المطالب الأخلاقية يصل إليها المصلي بدعائه بالهداية لنفسه بأن يسلك الطريق المستقيم، ومن ذلك نصل إلى معنى: ﴿ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾(العنكبوت:٤٥)، فمن صلّى فإنه يستطيع في أي مجال من المجالات أن يستدلّ نفسه عند الشبهة فيخاف عليها لمعرفته بالمعاد ودقة الحساب لـ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾، فلا يقع في شبهة في الأموال ولا في أعراض الناس لسيره في الصراط المستقيم.

معاني الصراط المستقيم في الروايات:

فُسِّر الصراط المستقيم بأمور:

أولاً: القرآن الكريم .

أي أنّ الصراط المستقيم هو القرآن الكريم، وقد جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ﴾(الكهف:١) أي أنه مستقيم غير معوج.

ثانيًا: تفسيرات أخرى .

وفُسِّر أيضاً بالنبي ص، وكذلك بالإسلام، وفُسِّر بالإمام أمير المؤمنين علي ع أيضاً، وكذلك بحب محمد وآله ص، إذن هناك تفسيرات متعددة للصراط المستقيم، لكنّها ترجع إلى معنىً واحد وهو الإسلام، لأنّه دين الله تعالى الذي ارتضاه لعباده، قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾(آل عمران:١٩).

المعاني في الروايات من قبيل الجري

يسمي السيد الطباطبائي يرحمه الله صاحب الميزان هذا النمط من التفسير بالتفسير بالجري ويقصد به أنّ هذا التفسير هو لبيان المصداق، أي أنّ المفسر يأتي بمصداق ومن خلاله يتضح المعنى، وهنا مصاديق متعددة للصراط المستقيم أهمها أنه يهدي إلى الحق، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾(الإسراء:٩).

إنّ تفسير الصراط بالنبي ص واضح لأنّه مصداق خارجي للقرآن الكريم، فهو يجسد القرآن، وكذلك تفسير الصراط بالإسلام لكون الإسلام هو الأحكام والقوانين والنظم التي تؤدي بالملتزم بها إلى أن يصل إلى الغاية التي من أجلها خلق، وهكذا تفسيره بالإمام علي ع لكونه نفس النبي ص ومصداق الإسلام البارز.

أما تفسير الصراط المستقيم بالحب للنبي وأهل البيت ع فهو أيضًا واضح، ويراد به ما يدعو للاقتداء والسير في جادة الصواب التي عليها المصطفى ص وأهل البيت ع.

وقد اتضح مما تقدم أنّ هناك مصاديق من التفسير بالجري لتبيان مصداق الاستقامة، ويتضح ذلك بنحو أكبر إذا عرفنا حديث الثقلين وأنّ القرآن وأهل البيت ع بينهما تلازم لا ينفك أحدهما عن الآخر.

سر صيغة الجمع في [اهدنا]

الحيثية الأخرى هي لماذا لم يعبر القرآن بـــــــ"اهدني الصراط المستقيم"، وعبّر بصيغة الجمع؟

ترتبط المسألة بأمور:

أولاً: توجب مظنة الاستجابة.

إذْ أنّ من أهم حيثيات الدعاء إشـراك الداعي لغيره، كي يسـتجاب دعاءه، ولهـذا أهميـة كبيرة ينبغي أن نلتفـت إليهـا في أدعيتنـا ونعمم الـدعـاء، أي أنّ الإنسـان يدعو لنفسـه ولغيره، لأنّ الدعاء لغيره يسـتجاب كما جاء في الروايات، وبذلك يتحقق ما يبتغيه لنفسه، ففي بعض الروايات أنّ الله تعالى يعطي مثلي ما دعا به العبد لنفسـه، أي يضـاعف له العطاء مرتين، وفي بعضـها الآخر أنّه يعطى مائة ألف ضعف، فقد كان عيسى بن أعين إذا حج فصار إلى الموقف أقبل على الدعاء لإخوانه حتى يفيض الناس . قال : فقلت له : تنفق مالك وتتعب بدنك حتى إذا صـرت إلى الموضـع الذي تبث فيه الحوائج إلى الله عز وجل أقبلت على الدعاء لإخوانك وتركت نفسـك ؟ قال : إني على ثقة من دعوة الملك لي وفي شك من الدعاء لنفسي. الكافي - الشيخ الكليني - ج ٤ - ص ٤٦٥

وقد لقي عبد الله بن جندب إبراهيم بن شعيب في الموقف بعرفة فسلم عليه وكان مصـابا بإحدى عينيه وإذا عينه الصـحيحة حمراء كأنها علقة دم فقلت له : قد أصـبت بإحدى عينيك وأنا والله مشـفق على الأخرى فلو قصـرت من البكاء قليلاً ؟ فقال: والله يا أبا محمد ما دعوت لنفســـي اليوم بدعوة ، فقلت : فلمن دعوت ؟ قال : دعوت لإخواني لأني سمعت أبا عبد الله (عليه الســـلام) يقول : من دعا لأخيه بظهر الغيب وكل الله به ملكًا يقول : ولك مثلاه ، فأردت أن أكون إنما أدعو لإخواني ويكون الملك يدعو لي لأني في شــــك من دعائي

لنفسي ولست في شك من دعاء الملك لي • الكافي - الشيخ الكليني - ج ٤ - ص ٤٦٥ ـ ٤٦٦

أي أنّ الداعي يريد أن يحصل على أفضل العطايا وأجل الهبات من الله تعالى، ولا يريد أن يحصل على القليل، قال تعالى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ (البقرة:٦١)•

ثانياً: محو الإنية.

وهنا بحث عميق يرتبط بهذه الحيثية، وذلك إننا عندما ندعو للغير مع دعاءنا لأنفسنا فإننا أشبه بمن يضرب عصفورين بحجر واحد، بالإضافة إلى كونه يرتبط بمحو الإنية، أي أنّ الداعي لا يرى نفسه وإنما يتوجه إلى مبدئه وخالقه إلى الله تعالى، وهذا أساس الكمال، قال الشاعر:

فقلت ما أذنبت فقالت مجيبة   وجودك ذنب لا يقاس به ذنب

يسمون هذا النحو في البلاغة تجريدًا، أي أنّ المتحدث يجرد من نفسه وجودًا ثم يخاطبه كنفسه.

أي أنّك ما دمت تنظر إلى إنّيّتك فأنت عابد لذاتك، وذلك من أعظم الذنوب، إذْ كيف تصل إلى الله تعالى في حال نظرك إلى ذاتك والتفاتك إلى إنّيّتك، والحال أنّ الوصول يتطلب انمحاء الإنّيّة، حيث لا ينظر من أراد الله تعالى إلاّ إليه، والدعاء للغير يعطي الداعي ذلك الكمال المعنوي، لأنه محى إنّيّته ولم ينظر إلى نفسه، بل توجه بكليته إلى الله تعالى فخاطب الحق تعالى بقوله: أفض على عبادك، فاستحق بذلك أن يعطى، لأنه لم يرَ لوجوده وجودًا في قبال وجود الله تعالى.

إنّ الإنّيّة هي أساس الكبرياء والعجب ومبدأ الرذائل الأخلاقية ومن تخلص من نظرته إلى ذاته فقد أصبحت صلاته مقبولة، ودعائه مستجابًا، وكشفت له الحجب.

الصراط المستقيم واحد

بقي بحث دقيق نختم به وهو أنّ الصراط المستقيم واحد، وفي قباله طرق متعددة ومعوجة، وفي العادة فإنّ قلب الإنسان وعقله وفكره الناضج إذا استعان بضميره وتوجه إلى الحق تعالى سيهتدي إلى الصراط المستقيم، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ (الأنعام:١٥٣)، في الآية إشارة إلى أنّ الطرق التي تدعو إلى الضلال كثيرة، وأما ما يدعو إلى الهدى فهو شيء واحد، أي أنّ الهداية تتأتى عبر طريق واحد وفي قبالها طرق متعددة فيها اعوجاج، وفي الرواية أنّ النبي ص كان جالساً مع بعض أصحابه فخط خطًّا، وقال هذا خط يؤدي إلى الله ثم خط خطوطاً معوجة وقال كلها تؤدي إلى النار، والإنسان في مساره تتعدد الطرق أمامه واحد منها يؤدي إلى الله تعالى وبقيتها تؤدي إلى النار.

مميزات الصراط المستقيم

بيّنا أنّ الصراط المستقيم هو أقرب طريق يوصل إلى الهدى والعاقل هو من يختار الطريق الأسهل والأقرب للوصول إلى مطلوبه، بمعنى أنه لا يختار الأصعب مع وجود الأسهل والأقرب لأنه يريد أن يحتفظ بقواه وقدراته ليستثمرها في رفع مستواه، ولهذا فحتى وإنْ أوصل بعض الطرق إلى الهدى مع وجود اعوجاج فيه وعدم استقامة، فإنه لن يسلكه لكونه لن يوفر طاقة وجهداً، ويستنفد القوى، وقد أشار النبي ص بقوله: ((ما خيرت بين أمرين إلاّ واخترت أيسرهما))(كشف القناع للبهوتي ج٢ ص٣٥٧) أي أنه (ص) يختار الأسهل لكونه يوفر جهداً.

النموذج التام الكامل لرواد الصراط المستقيم

رغم أنّ الصراط فيه وضوح ولا اعوجاج فيه غير أنّ الحق تعالى يؤكد على أمر غاية في الأهمية هو أنّ الصراط له رواد، وهم أناس يمثلون نماذج تامة وكاملة في استقامتهم وهديهم وسمتهم وتعلقهم بالله تعالى، وهم الأنبياء والرسل والأئمة ع، والتوكيد على ضرورة اتباعهم، لهذا جاء ﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ ﴾ ويرجع السبب في ذلك إلى أنّ المرء إذا كان لديه عدة من المفاهيم في أفق ذهنه فهي مفاهيم مجردة إذا لم يكن لها نماذج مطبقة على عالم الواقع، ولهذا سيحار في الكيفية المثلى في تطبيقها أي أنه لن يكون لديه وضوح في الرؤية، ذلك أنّ الوضوح في الرؤية قد يستلزم تجسيداً في عالم الواقع، ولا يتحقق ذلك إلاّ مع وجود نماذج تامة وكاملة في الاستقامة، ولهذا أكد الحق تعالى على هذا الأمر لأهميته أي أنه لا يكفي السائر أن يقول إنّ الأمور تامة الوضوح، إذا لم يكن لديه في عالم التطبيق مثال يقتدي به، قال الله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾(الأحزاب:٢١) إذن هناك أهمية بأن يكون الصراط المستقيم متجسداً في أناس بنحو كامل، وكي يتضح هذا الأمر فإنّ الإنسان إذا جرّب أمراً وأراد أن يتخصص في مجال ما سوف يعي أهمية مبدأ القدوة، والانموذج الكامل، لأنّ الإنسان الكامل له التأثير في إيصال غيره إلى الكمال.

ذلك أنّ الإنسان لا يستطيع أن يعرف دقة التطبيق إلاّ من خلال ملامسة الواقع، ولهذا فرق العلماء بين أنماط ثلاثة من العلم، هي: علم اليقين، وعين اليقين وحق اليقين، فعلم اليقين فيه وضوح في الرؤية ويهدي إلى الصراط المستقيم، أما حق اليقين، فإنه بالإضافة إلى ذلك فإن فيه بعض دلائل الواقع، ومثال ذلك الدخان الذي يدل على النار، فإنه علم يقين، أما رؤية النار فهي حق

يقين لكن الانصهار بها هو إدراك للحقيقة لمن دخل في النار، فاشتعل بها، ولهذا فإنّ إحساسه بالنار يختلف عمن رأى الدخان أو من رأى النار فعلم بها مجردة، إنّ حق اليقين هو الانصهار بالنار، وهو مبدأ القوة في الإدراك والإذعان بالحقيقة، أي أنّ الإنسان يصبح في تطبيقه للمفاهيم على درجة عالية فكأنه يجسد تلكم المفاهيم، ولهذا اهتم الحق تعالى بإيراد القصص القرآني لعرض حياة الأنبياء والرسل ومرورهم بالابتلاءات المتعددة في حياتهم، وخروجهم من الامتحانات ظافرين أي أنهم لم ينشدوا إلى الأرض، بل استطاعوا بصبرهم واستقامتهم أن يتعلقوا بالله تعالى وأن يجتازوا الصعاب ونالوا من الله تعالى رضوانه.

إذن عرفنا أنّ هناك طرقًا فيها اعوجاج وهناك صراطًا مستقيمًا والصراط المستقيم له مثل و نماذج كاملة هم الأنبياء والرسل والأئمة ع، إذْ أنه ليس هناك من تعرض لإغراءات وإغواءات وابتلاءات كالتي ابتلي بها الأنبياء والرسل، فيوسف ع ابتلي بالجنس وهو في فترة شبابه، ولو كان غيره لأمكن أن ينحرف ولم يستطع أن يصبر ويقاوم إلى أن يتغلب على غريزته ويحصل على إتباع دقيق.

نعم؛ هناك تفاوت من شخص إلى شخص في الاستقامة بالاقتداء بيوسف ع، وهناك من يتعرض لإرهاب السلطة كمن عاش في العراق في زمن صدام الذي اتصف بالجبروت والبطش والتعذيب بأنماط من العذاب الشديد، وحينئذ لن يصبر على ذلك إلاّ قليل.

إنّ إرهاب السلطة هو الذي تعرض له إبراهيم ع، فقد أُلقي في النار وتعرض لتعذيب وإرهاب، وقد قص القرآن الكريم علينا ذلك لنعتبر بأنّ صراط الحق هو صراط الذين أنعم الله تعالى عليهم أي أنهم هم النماذج التي نجحت في الابتلاءات المتعددة كالسيطرة على شهوة الجنس والتحمل للتعذيب الشديد والابتلاء بالسلطات الظالمة ومقاومة الإغراء بالمال والمنصب وكثير من الناس تزلُّ قدمه إذا تعرض لذلك، من هنا نعرف أهمية "صراط الذين أنعمت عليهم"

أي أنهم أنعم عليهم بإعطائهم جميع النعم المعنوية التي أوصلتهم إلى درجة الكمال والقرب من الله تعالى، بحيث لا يتأثر المنعم عليه سلباً.

إنّ اجتياز الابتلاء يحتاج إلى صبر، وهم في قمة التحمل بصبرهم ويحتاج إلى جهاد في سبيل الله تعالى بأن يقدم المرء نفسه قربانًا في سبيل الله تعالى، وبما أنهم الأنموذج التام والكامل طُلب من سائر الناس أن يقتدوا بهم قال تعالى: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾(الأنعام:٩٠)، ولهذا جاء التوكيد بالأمر بالدعاء بأن يهتدي الإنسان إلى صراطهم "اهدنا الصراط المستقيم" لأنّ النعمة التي حصل عليها هؤلاء تامة ودائمة قال تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾(البقرة:١٣٠)، أي أنه وصل إلى درجة صلاح الذات وليس صلاح الفعل فقط، أي أنّ ما يصدر منه من فعل يمثل الصلاح التام، وذاته ذات صالحة أيضًا، بخلاف غيرهم فإنه قد تصدر منه أفعال صالحة، لكنّ ذاته ليست بصالحة، بل فيها شوائب، وعليه لن يكون قدوة لأنه ليس من الذين اجتباهم الله تعالى واصطفاهم وأصبحوا ليس للشيطان سيطرة على أنفسهم ولا على عقولهم وأفكارهم لأنّ الله تعالى أخلصهم لنفسه تعالى.

جاذبية الصراط المستقيم

مبدأ القدوة عام وله تأثير في رقي الإنسان وتكامله، من خلال المثال الذي يحتذي به، ولذلك أهمية في وصول الإنسان إلى درجات كماله، إننا في كل مجال نرى أنّ العامل المهم للتألق والرقي يتحقق بمبدأ القدوة، ولولا الاقتداء بالشخصيات التي لها وزن في تأثيرها لما استطاع كثير من الناس أن يصل إلى ما وصل إليه.

بقي شيء لم ننبه عليه في الصراط المستقيم، وهو أن من خصائص الصراط المستقيم الذي نطلب الهداية إليه أنه يجذب السائر بحيث لا يستطيع

إلاّ أن يســير فيه، وليس ذلك بمعنى أنه لا يقدر على الســير فيما ســواه بل من ناحية العلم بوجود فرق بين السير فيه والسير في غيره، ويقال إنّ الصراط بمعنى الطريق الذي من شأنه أن يضمّ سالكيه ويطويهم في متنه.. ومن شأنه . استمداداً من مادّة «صَرَطَ» اللغويّة ــــ أن «يصرط» السائرين فيه ويبتلعهم، فلا يفكّهم حتّى يوصلهم إلى خاتمته ونهايته؛ إذ الصِّراط والسِّراط لهما دلالة واحدة مشتّقان من «صرط» و«سرط» بمعنى: ابتلع وازدرد، فكأنه يبتلع السائر ولا يدع له مجالاً أن يسير في طريق آخر، وهذه خصيصة علمية، ذلك أنّ الإنسان إذا فهم الشيء الأكمل والأفضل الأحسن اختاره على غيره، وأخذ به وترك ما سواه، فإذا وضعنا أمامه ماءين أحدهما نقي تتوافر فيه موازين تتلاءم مع صحة الإنسان بالنحو الأمثل، والآخر أجاج أيهما يختار؟ إنه يختار النقي لا لكونه غير قادر على أن يشرب الماء الثاني، بل لديه القدرة على شربه ولكنّ علمه لا يدع له مجالاً إلاّ بشرب النقي، فهو غير مجبور من ناحية القدرة ولكنه مجبور من ناحية العلم، والصراط المستقيم خصيصته كذلك، فإذا ذاق السائر فيه حلاوته وأدرك معناه استلذه وترك غيره.

﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾

الصراط هبة من الله

من ذلك يتضح معنى ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ فإنّ النعمة هي العطية التي يهبها الله تعالى وتستلذ وتستطاب، إنها تمثل في اصطلاحنا غاية ما يبتغيه المنعم عليه، والصراط المستقيم كذلك، وللسائرين عليه علامات وخصائص أشار إليها القرآن الكريم قال تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾(النساء:٦٩)، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ﴾(النساء:٦٩) ، ولهذا يستطاب العيش معهم، قال تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾(النساء:٦٩).

سمات نماذج الصراط المستقيم

إنّ من خصائص القدوة من السائرين في الصراط المستقيم العصمة كي لا يزل غيره بإتباعه وهي خصيصة ينبغي أن نلتفت إليها.

أولا: اتصافهم بالعصمة.

إنّ المعصوم لا يستطيع ترك ما هو عليه لعلمه الجازم اليقيني التام بأنّ ما هو عليه هو الكمال الذي لا يوجد وراءه مرتبة أكمل وأحسن وأفضل منه، وقد أعطى القرآن الكريم نماذج للمعصومين وهم الأنبياء وأنهم لا يعصون الله تعالى لعلمهم بآثار المعصية الوخيمة بل أنّ الأقل منهم شأنًا وهم الذين حصلوا على العصمة المكتسبة لا يعصون الله، فكيف بمن لديه العصمة الحقيقية غير المكتسبة، وكي تتضح المسألة فإنّ من لديه العصمة المكتسبة لا يستطيع أن

يعصي الله تعالى علميًا لأنه يرى أنّ المعصية قذارة، فإذا وُضع له طعام طيب، وآخر ملوث، فلا يأكل الطعام الملوث لا لكونه لا يستطيع ذلك بل لأنه عرف آثار الطعام المسموم والملوث فابتعد عنه، كذلك حال الأنبياء الذين عجنوا بماء الإخلاص، ثم استخلصوا فأخلصوا، فهم من المخلَصين لله تعالى، فلا يستطيعون اقتراف المعصية لعلمهم بآثارها، ومن وصل إلى درجة من أنعم الله تعالى عليه أو كان لديه سير في الصراط المستقيم ولم يدعه ولم يمل عنه، وأصبحت لديه عصمة مكتسبة بحيث لا يقدر على ترك السير في الصراط المستقيم، وحتى إن مال جذبه الصراط إليه فرجع، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾(الأعراف:٢٠١)، لكونه على بصيرة من أمره فيتذكر ويرجع لأنّ الصراط يكاد أن يبتلعه ولا يدعه أن يسير في غيره ولإدراكه التام والكامل أنه على الحق ومعه.

ثانيًا: الطاعة المطلقة.

من جملة مقتضيات الإيمان الطاعة المطلقة لله تعالى ولرسوله، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾(الأحزاب:٣٦)، أي أنه لا يختار إلاّ ما يريده الله تعالى وما يريده النبي ص، ويرجع انسلاخ قدرته إلى العلم، لكونه عرف أنّ الأمر الإلهي سيؤدي به إلى الكمال، وتركه يؤدي به إلى التسافل، فهناك درجتان درجة علو تتحقق بالإخلاص والتجرد عن الأهواء والسير على وفق ما يريده الله تعالى والرسول والإتيان بالتكاليف الشرعية التي وردت عن النبي ص والأئمة ع، ومن سار في هذا الطريق سيكون مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء

والصالحين وحسن أولئك رفيقاً، وسيصبح قدوة، ولعل هذا معنى قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾(الفرقان:٧٤).

ثالثًا: أعلى درجات.

كيف يصبح المؤمن إماماً للمتقين؟ لأنّه تدرج حتى أصبح مثالاً يحتذى به، فوصل إلى قمة درجات الإيمان بيقينه، ومن وصل إلى هذه الدرجة سيكون إماماً لمن هو أقل منه درجة، وقد قال بعض المفسرين إنّ السير في الصراط المستقيم لا يكون إلاّ مع إنسان قدوة يحتذى به على جميع الصعد فيقتدي السائر بالأعلى منه في العلم والعمل واليقين والصبر والاستقامة.

الوصول إلى أعلى مراتب الكمال

أورد بعض العلماء إشكالاً هو أنّ المسلم المعتقد بالشريعة الإسلامية وهي أكمل الشرائع الموصلة إلى أعلى درجات القرب الإلهي كيف يدعو الله تعالى أن يهديه صراط من تقدم عليه، ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي المتقدمون الذين أنعم الله تعالى عليهم؟

والحال أنّ الشرائع السابقة لم تكن في رتبة الشريعة الإسلامية وبالتالي إيصالها إلى الله تعالى أخفض من إيصال الإسلام إلى الله تعالى.

وهذا الإشكال لا يرد على التفسير الذي أوضحناه لأننا جعلنا المراد من الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله تعالى عليهم يقصد به نماذج خاصة، وهم الكاملون في رتبهم ولا يقصد به جميع أصحاب وأتباع تلك الشرائع، بل هم النخبة في الاصطلاح المتعارف والثلة القليلة التي وصلت إلى أعلى درجات القرب الإلهي، وينبغي أن نلتفت أنّ الضابطة ليست في كمال الطريق وإنما في سالك الطريق، فسالك الطريق قد يسلك طريقاً متوسطًا لكنه بحذاقته ومهارته

وإخلاصه يصل إلى أعلى درجات القرب، فيمكن لشخص أن يسلك طريقاً معبداً ولكن لعدم بذله الجهد، وعدم إخلاصه لا يصل إلى الرتبة التي وصل إليها غيره، وكي نوضح ذلك علينا أن نلتفت أنّ الناس كما نشاهد في حالنا لا ترتبط الرتب التي يصلون إليها بما لديهم من الإمكانيات، فهناك من تتوافر لديه الإمكانيات الكبيرة لكنه مع ذلك يبقى في مرتبة منخفضة، وهناك من لديه بعض الإمكانيات البسيطة ولكنه يصل بها إلى أعلى الدرجات، والضابطة ليست في توافر الإمكانيات، فالشريعة الإسلامية توصل العامل بها إلى أعلى الدرجات لكنه قد لا يعمل وقد لا يخلص فلا يصل إلى ما وصل إليه بعض من كان مع عيسى أو موسى أو مع السابقين من الأنبياء، ويقرب ذلك لنا قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾(النجم:٣٩)، إذن تختلف الرتب باعتبار الإخلاص والقرب من الله تعالى، والتجسيد الكامل لأوامره، ومرتبة القرب غير خاضعة للاعتقاد بشريعة موسى أو عيسى بل بالإخلاص وبذل الجهد والإحسان إلى الناس كافة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾(العنكبوت:٦٩)، وعليه فمن بذل غاية جهده وإخلاصه سيختلف عمن بذل بعضاً من الجهد والإخلاص ومثال ذلك مؤمن آل فرعون، وبعض حواري عيسى ع، وبذلك يزول الإشكال.

أمور ينبغي مراعاتها للوصول إلى أعلى الرتب

المطلب الثاني أنه من خلال "اهدنا الصراط المستقيم ❖ وصراط الذين أنعمت عليهم" يتبين لنا أنّ الوصول إلى الدرجات العالية يتوقف على أمرين رئيسين:

الأول: العمل الصالح

والثاني: العلم.

للعمل الصالح أهمية فائقة وكبيرة وسعي الإنسان وجهده الذي يبذله للوصول إلى درجات عالية بأعماله الصالحة يوصله إلى رتب علية، لكن السعي وحده والعمل دون علم، لا يُمكِّن الإنسان من البلوغ إلى درجات عالية في الأعم الأغلب بل يحتاج إلى أعمال صالحة وعلم، لكون العمل دون علم لا يكفي بل قد يخطأ الإنسان في بعض التطبيقات، ولعل قوله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾(المجادلة:١١)، يشير إلى ذلك أي أنّ الإنسان يرتفع بإيمانه، ولا يراد بالإيمان الاعتقاد وحده لأنّ الإيمان جزء منه عمل كما جاء في الروايات بل أنّ القرآن الكريم إبان هذا المطلب في قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ أي أنّ ترتيب ارتفاع الإنسان معنوياً يتوقف على إيمانه الذي هو اعتقاد وعمل، وعلى معرفة، وما لم تتوافر المعرفة فلن يتمكن الإنسان من الوصول إلى درجات سامية.

نعم؛ من الممكن أن يصل إلى درجات منخفضة ولكنّ الدرجات العالية تتطلب من الإنسان أن تكون لديه معارف وعلوم، وبذلك يتضح أنّ "صراط الذين أنعمت عليهم" لا يمكن الوصول إليه إلاّ بأمرين هما: عمل جاد ودؤوب وعلم يبلور ذلك العمل، أي يضع الأعمال التي يقوم بها الإنسان على وفق مقاييس دقيقة وكي تتضح هذه النقطة، نشير إلى أنّ هناك أناس يعملون كثيرًا ولكن العمل الكثير لكونه ليس على وفق المقاييس المطلوبة يصبح تأثيره قليلاً، بخلاف ما إذا كان العمل على وفق المقاييس فإنّ تأثيره يصبح كبيراً، ولعل الإشارات الواردة في الروايات بأهمية أن تكون الأعمال التي يأت بها الإنسان على وفق الضوابط الشرعية وأنّ العمل ليست قيمته بكثرته وإنما لتوافر شرائط ومقاييس فيه، وأهم تلكم المقاييس أن يكون على صراط مستقيم، وهو صراط الذي أنعم عليهم الحق تعالى ليكون المتبع معهم، قال تعالى: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ

﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ﴾(النساء:٦٩)، وهم الذين صلحت ذواتهم وصلح عملهم، وقد أشارت بعض الأحاديث إلى أنّ الله تعالى يريد أن يعبد ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ من حيث أمر، وليس من حيث ما يشتهيه الإنسان وما يريده، بل من حيث ما يريده الله تعالى ويأمر به، بمعنى أنّ العبادات لها مقاييس، وكي يتضح ذلك نعطي بعض الأمثلة كي لا يصبح المطلب نظريًّا.

إنّ بعض الناس قد يأتي بنوافل كثيرة، ولكنه يخل ببعض الواجبات، فعبادته كثيرة لكنّ عنده إخلال ببعض الواجبات، ولذلك يصبح تأثير النوافل قليلًا وضئيلًا، لكون درجة الإخلاص قليلة أو مشوبة بالرياء أو العجب فلا يكون لها التأثير المطلوب، إنّ العمل عندما يكون على وفق الشرائط والضوابط حتى وإنْ كان قليلًا ضئيلًا، لكنّ تأثيره كبير وعميق، وقد مرّ علينا أنّ الإمام أمير المؤمنين ع تصدق بخاتم في صلاته ولا يريد به إلاّ الله تعالى فنزلت فيه آية، وكذا الحال في صدقته ع مع الحسنين والصديقة الزهراء ع حيث نزلت فيهم آية ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾(الإنسان:٩)، إذن هناك ضوابط على أساسها يُعلم لابدية اقتران العمل بالعلم.

﴿ولا الضالين﴾

الضلال عن الصراط المستقيم

بينا أنّ قوله تعالى ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ بيان لمبدأ من يقتدى به وهم الرسل والأنبياء والأئمة ع وهو ما عبرت عنه الآية: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾(النساء:٦٩).

يبين القرآن الكريم طريقين ويوضح أيضًا صفات وسمات أتباع الطريقين، من خلال بيان المسالك والسبل المختلفة التي تجعل الرؤية واضحة لا لبس فيها، والأمر هنا كذلك، فمن الناحية النظرية يبين أهمية السير في الصراط المستقيم وأنه الطريق الموصل إلى الهدى، ومن الناحية العملية يبين مبدأ القدوة أي الجانب الإيجابي، وكذلك يوضح القرآن الكريم الجانب السلبي لمن يقف في قبال السائر على الصراط المستقيم، فإنّ من يقف في قبال هؤلاء ويسير عكس الاتجاه لمن أنعم الله تعالى عليه، فهو من أهل الضلال وهم على قسمين:

الأول: من تكون الرؤية غير واضحة لديه ولكنه لا يريد الوضوح بل يريد أن يبقى على ما هو عليه.

الثاني: من تكون الرؤى واضحة لديه بينة عنده، ولكنه لا يريد الحق، بل يريد الباطل ومحاربة الحق والوقوف في قباله، فيصبح ضالاًّ على علم، وسمته الأولى المعرفة فهو على بينة من أمره ولا يخالف لأنه لا يعرف، بل يعرف فيخالف، قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾(النمل:١٤)، الجحود هو الإنكار وبعض الإنكار يكون في دخيلة نفس المنكر معرفة وعلم ومع علمه ومعرفته يجحد معاندًا، والمصداق الواضح لهذه الفئة هم اليهود الذين

عرفوا حقانية الشريعة الإسلامية لاطلاعهم على البشارة بالنبي ص في الكتب السماوية السابقة بل وضوح صفاته، ومع ذلك فهم لا ينكرون الرسالة فقط بل يبذلون قصارى جهدهم لمحاربتها، فهم أصحاب الضلال، وهذا مبدأ عام لا يختص بهم، فكل إنسان عرف الحق ثم وقف في قباله فهو ضال، وللضال نماذج متعددة، فمن عرف الحق مع من، وتركه، لكون المصالح تقتضي الوقوف في قباله، فهو ضال، وهكذا من يشهد بحقانية الباطل، وأنّه هو الصواب كالشاهد زورًا، فهو ضال، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ} (آل عمران:٩٠).

﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾

أثار الضلال

الضال لا يسير في الصراط المستقيم وليس مع الذين أنعم الله تعالى عليهم، بل مع الضالين، وهناك آثار تترتب على الضلال:

أولها: الغضب الإلهي، فإنّ الله تعالى يغضب على الضال الذي عرف الحق ولم يتبعه بل وقف في قباله، ولهذا فإنّ الصالح يدعو الله تعالى بأن لا يكون مع الضالين الذين غضب الله تعالى عليهم، ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ والمراد بغضب الله واستهزائه ومكره ليس المعنى الموجود لدينا، فإنّ الغضب ثوران الدم وإرادة الانتقام من المغضوب عليهم، والله تعالى لا يتغير من حال إلى حال لأنه لا تطرؤه الأحوال، وعليه فإنّ معنى الغضب الإلهي هو ترتيب الجزاء والعقاب، أي جعل الجزاء مرتباً على نحو الجزم والحتم لمن اتصف بهذه الصفة فمن ضلّ سوف ينال جزاؤه، وكذلك معنى الاستهزاء فهو ليس بمعنى السخرية التي عندنا بل بمعنى ترتيب الأثر والعقاب لمن استهزأ.

والمكر كذلك أيضًا وليس هو بمعنى إظهار إرادة الصلاح ظاهرًا وإيقاع الطرف المقابل في المكروه لأنّ الله تعالى لا يحتاج أن يظهر شيئًا ويخفي شيئاً آخر، لكنه يجعل الآثار التي لا يعلم بها الإنسان تأتيه من حيث لا يحتسب، ويساوق هذا ما نعبر عنه في الأحساء: "إنّ الله تعالى لا يضرب بعصا" أي أنه تعالى يجعل آثار العمل بينة واضحة، فمن يسيء لبعض أرحامه ستدور عليه عجلة الأيام، وسيفقد بعض أولاده، وبعض القاطعين ينتبه لنفسه ويرجع إلى الصواب بعد خسارته بفقد ولده، وذلك مكر إلهي رُتب أثر قطيعة الرحم أو الإساءة إليه بفقد الولد، ويتضح بذلك أنّ السائر في الطريق المستقيم خاضع للحق، لا يعانده ولا يجادل فيه، بل يتواضع له بنحو مطلق، ولهذا ينال رحمة

وتوفيقاً في قبال أولئك الذين عرفوا الحق فجحدوه، وحاربوه، وهم مصداق قوله تعالى: ﴿ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾(المائدة:٦٠)، فمن عرف الحق واتبعه وخضع له وانصياع تنزلت عليه الرحمة، وعكسه من غضب الله تعالى عليه كبعض اليهود، وهم مصداق لذلك ولا تنحصر بهم معاندة الحق فإنّ كل من سار معانداً فهو مصداق من المصاديق، إذْ أنّ القرآن يفسر بعضُه بعضَه الآخر.

والخلاصة: أنّ الضال تارة يكون تائهاً عن الحق من غير علم، وأخرى مع علم وعناد فيصبح موئلاً للغضب الإلهي.

إنّ بعض المفسرين جعل المغضوب عليهم غير الضالين، وقال إنّ الضال هو التائه عن الحق دون عناد، أي مع عدم علم بالصراط السوي.

أما المغضوب عليهم فإنهم هم الذين لا يسيرون في طريق الحق مع علمهم أو أنهم هم أهل الذنوب والمعاصي الذين تلوثت فطرتهم فلم يقبلوا الحق، ولعل الأقرب هو أنّ الضالين على قسمين:

أحدهما: التائه عن غير علم، والثاني: هو التائه عن علم كما تقدم في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ} (آل عمران:٩٠).

أما المغضوب عليهم فهم الذين حادوا عن الحق فأصبحوا أئمة للضلال، وبمعنى آخر هم رواد الإضلال وقادته، والذين همهم هو إخراج الناس من النور إلى الظلمات، والله تعالى أعلم وأحكم.

والحمد لله رب العالمين .